يقظة الحس الزمني في الدرس البلاغيين بين التركيب والدلالة

"نماذج مختارة من أحوال المسند إليه والمسند"

د. موزة بنت حمد الكعبي *

تاريخ تقديم البحث: ٢٠١٩/١٠/١١م. تاريخ قبول البحث: ٢٠٢٠/٦/١٥م.

ملخص

هذه الدراسة تبين الفكر البلاغي عند أربابها تجاه الزمن، فهو يمثل لديهم سياقات نصية ذات قوالب ذهنية لها وظائف معرفية وأبعاد معنوية، تنتج عنها كثافة بلاغية تتماشى بخط متوازٍ مع النظم النحوية للغة التي تحملها جنبا إلى جنب ولم تخالفها إلا في تأويلات لها استناداتها المعرفية

تجسد هذه الدراسة وثيقة بلاغية مكثفة متخذة من عروس الأفراح والمطول والأطول لشرح تلخيص الخطيب القزويني أنموذجا في أحوال المسند والمسند إليه لتجسد نموذجا للفكر البلاغي نحو التراكيب اللغوية وأزمانها واستمطار معانيها، تحوي هذه الدراسة على ثلاثة محاور أساسية تشكلت عبر النظر إلى وجهة الزمن وحجم امتلائه بالحركة من عدمها:

١. دائرة الحس الزمني في الدرس البلاغي، زمن الحدث والحديث عنه دراسة عمودية

٢. مراتب الحس الزمني في الدرس البلاغي التنبؤي الاستشرافي أو التراجعي المتأخر دراسة أفقية.

أ- يقظة الحس البلاغي الزمني التنبؤي" الاستشرافي" السابق لوقته

ب- يقظة الحس البلاغي الزمني التراجعي المتأخر عن وقته.

٣. يقظة الحس البلاغي من تغييب الزمن وتصفيره.

لتخلص هذه الدراسة بأن الفكر البلاغي فكر تأويلي تتبعي لسياقات النصية وفق نظامها اللغوي وما ينتج عنه من معانٍ متعددة لعقارب الزمن أحيانا، سواء كان الزمن متقدما أم متأخرا أم مصفرا، مع الأخذ بالاعتبار ما يحتويه السياق من أدوات وضمائم وقرائن حالية كتصنيف المتكلم ممن لا يكذب ومتكلم يكذب ليصب ذلك كله في صنع معنى بديع دقيق، وأن هناك مساحات من الزمن متداخلة مع بعضها رغم اختلاف توقيتها لوجود مساحات سياقية متوالية في الأحداث تتطلب نظما زمنيا متداخلا.

الكلمات المفتاحية: الزمن، الدرس البلاغي، الإسناد، التقييد بالشرط، البلاغيون، الحدث، المتحدث.

* قسم اللغة العربية، جامعة حفر الباطن، المملكة العربية السعودية.

حقوق النشر محفوظة لجامعة مؤتة. الكرك، الأردن.

Awareness about Time Sensation in the Rhetorical Lesson between Structure and Indication (Selected models from predicate and subject-predicate conditions)

Mozah Hamad Alkaabi

Abstract

This study shows the rhetorical though of its specialists towards time. Thus, it represents textual contexts that have mental formation with cognitive functions and meaningful dimensions which are filled with rhetoric that runs in a paralleled line with the grammatical system of the language holding it side by side and never breaking it unless in some interpretations that have cognitive basis. This study embodies an intensive rhetorical document taken from a book entitled (Wedding Bride for illustrating the model of both lengthy and longest) regarding the attribution and restriction condition that embody in rhetorical thought to deal with the linguistics structures regarding its time and the extract meanings. This study consists of three main parts which form by looking to the direction of time and its fullness of movement: 1. The circle of sense of time in the rhetoric lesson, the event's time and the speech about it – a vertical study. 2. Degrees of sense of time in rhetorical lesson of predictive outlook or the late retrospective – a horizontal study: a. consciousness of sense of rhetorical time of predictive outlook that precede its time. b. The sense of rhetoric retrospective time that late of its time. 3. The sense of rhetoric in the absence and unavailability of time. To conclude that the rhetorical thought is an interpretive thought that tracing the textual contexts according to its linguistics system and its result from others sometimes of exact time early, late or nothing from contexts with a concentration on what the context's tools, enclosure and current evidences such as the classification of the speaker does not lie and the speaker lies which creates wonderful accurate meaning. Also there were spaces of time interacts with themselves despite the difference in timing for existence of consecutive context spaces required interacted time system.

Keywords: Time-Rhetorical Lesson-Attribution--Restriction condition-the event-speaker

"**المقدمة**"

لم يكن البلاغيون بمعزل عن دقة الحس الزمني شعبه ودروبه وأثره، فهو من الأدوات الإجرائية التي تقود إلى تشييد المعنى ضمن ضوابط التأويل المعرفي للدرس البلاغي، فقد أدركوا أن الزمن يتفاوت لتفاوت الحدث وتعدد زمن الحديث عنه وفق معنى يرسمه قائله، أو ناقل الحدث، فالمعنى منفصل عن الواقع المُدرك، وما الصلة بينه وبين الواقع إلا صلة عرضية؛ لأن المعنى كما يقول الرازي: "ما عناه العاني وقصده القاصد"(١)، فهو وثيق الصلة بقصد القائل، فما هو إلا أبنية نفسية وأمثلة شعورية في نفس قائله، ويتجلى ذلك في حديث أهل البلاغة حينًا في خروج الكلام خلاف مقتضى الظاهر مثلا، وسيتضح ذلك بمناقشة الأمثلة والشواهد في هذه الدراسة، وما جهد أولئك الجهابذة في قياس الزمن وأثره على السياق إلا دلالة على استيعاب الدرس البلاغي للزمن ودلالته.

موضوع البحث:

يقظة الحس الزمني في الدرس البلاغيين بين التركيب والدلالة "نماذج مختارة من أحوال المسند إليه والمسند نموذجا"

مشكلة البحث:

لا شك بأن هذه الدراسة تجيب عن عدد من الإشكاليات التي تواجه الباحث:

* ماهي صورة الزمن عند البلاغيين في أحوال المسند إليه والمسند؟

* كيفية تفاعل عناصر السياق لإنتاج دلالات زمنية وفق التركيب والسياق من وجهة نظر السبكي والسعد والعصام في أحوال المسند والمسند إليه وكيف تجلي تلك الدلالات في مفاهيم ورسائل مباشرة، أو غير مباشرة للمتلقي.

* كيف تتبع الفكر البلاغي السياقات النصية ذات الدلالات الزمنية وفق نظامها اللغوي وأثر ذلك في تأويل وإنتاج المعنى؟

* هل للبلاغة زمنها الخاص عند الشراح؟

(١) الرازي، فخر الدين أبو عبدالله محمد بن عمر، **التفسير الكبير ومفاتيح الغيب**، ج:١، ط: ٣، بيروت، دار الفكـــر، ١٤٠٥هـ، ١٩٧٥م، ص ٣٢.

حدود الدراسة:

الحد الأول من حيث الموضوع:

الزمن من حيث وحداته الثلاث (ماضية–مضارعة –أمر) التي نص عليها النحاة العرب القدامى[١] غير أن التعبير عن الزمن يتأخذ صورا مختلفة في الأداء، وهو في الغالب عن طريق الوحدات المعجميّة الدالّة، أو من خلال تصريف الأفعال، أو من خلال ما توحي به التراكيب، ويستفاد من السياقات أو الأساليب المتّبعة في الكلام، ولذا ستشمل الدراسة على كل ما يتعلق بسياقات الزمن من ضمائم وقرائن تساعد في تحديد زمنية المراد، ومنها ما يتعلق بزمن تواجد الشخوص كما في الالتفات فزمنية المتحدث أو قت التلفظ في القول سيكون له زاوية في هذه الدراسة ولربما سأل سائل ما سبب جعل الالتفات في هذه الدراسة الزمنية ؟

الالتفات حال من أحوال المسند وإن لم يتقيد بالمسند إليه كما ذكر السكاكي[٢]، أما دخوله في السياق الزمني لا من حيث الوقت بل من حيث وقت وجود المخاطب، أي زمن التلفظ كان موجودا أم غائبا واستأنس بما رأته إحدى الاستاذات حين كتب بأهمية دراسة الزمن البلاغي وذكرت منه الالتفات في مقال لها[٣]، لاشك أن لزمن التلفظ بالقول تواجد في معنى الزمن فحال حضور الشخوص أو غيابها وقت الحديث أو زمنه هو ما تم اعتبار صلته بالزمن، فالدراسة وإن كانت زمنية إلا أنها ليس زمنية بالمعنى الحرفي المعجمي، بل ما يدل على معنى الزمن ويخدم السياق ليعطيه بعدا زمنيا.

الحد الثاني من حيث النص:

لم يخصص المُنجز البلاغي القديم فصولًا للزمن، غير أنَّ محاريثه طالته، وتربته زُرعت فيها أطيب النُكات التي تستحق الوقوف والتأويل، وتنطلق هذه الدراسة متخذة من بعض نصوص شروح التلخيص كعروس الأفراح لبهاء الدين السبكي، والمطول لسعد الدين التفتازاني والأطول لعصام الدين الإسفرائيني، في أحوال المسند و المسند إليه، وليشمل ما ذكره السبكي والسعد والعصام عن الزمن وفق الحد المذكور ضمن مواطن أحوال المسند إليه والمسند ولا ينفي هذا التحديد خلو هذه الشروح من

(١) سيبويه، أبو البشر عثمان بن قنبر، الكتاب ، أبو البشر عثمان بن قنبر، تحقيق: عبد السلام هارون، بيروت، عالم الكتاب، ١٩٥٠م، ط:١، ص: ١/ ١٢

(٢) السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر بن محمد، مفتاح العلوم ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط:٢ ، ١٩٧٨م، ، ص١٩٩

(٣) العتيبي، زكية الزمن البلاغي، جريدة الجزيرة، العدد: ١٧٢١٥،تاريخ النشر ١٦-١١-٢٠١٩

الحديث عن الزمن وسياقاته وجهاته في بقية شروحهم ففي المجاز المرسل وبعض فصول البديع وفرة كما سأشير في دراسات مشابهه.

أهمية البحث:

تأتي أهميته من أهمية كتاب التلخيص للخطيب القزويني في البلاغة الذي عُدَّ الشمس التي تدور عليها كواكب البلاغة، ومنها تأتي أهمية الشروح التي دارت حوله(١)، و من أهمها: عروس الأفراح لبهاء الدين السبكي، المطول في شرح تلخيص المفتاح لسعد الدين التفتازاني، والأطول في شرح تلخيص المفتاح، لعصام الدين الاسفرائيييني، فالسبكي عُدَّ من قبل بعض أهل الاختصاص أفصل من القزويني ذاته، في حين اعتبر مطول السعد من خيرة الكتب التي تمثل الاتجاه الكلامي في التأليف البلاغي(٢)، كما أن العصام وإن كان أقل منهما جودة غير أن مناكفتاه للسعد رفعت من قيمة الشرح(٣) .

تُزيح هذه الدراسة الستار عن نفائس هذه الشروح التي حُصر وصفها بأنها فلسفية فقط دون إشارة إلى الفتوح الأدبية التي تحتاج إلى من يجليها ويبين سبقها وقربها من الدراسات الأدبية، كما أنَّ "للمقاربة التداولية للزمن موقعًا بارزًا ضمن خريطة المنظورات التحليلية في خريطة البحث اللساني المعاصر"(٤).

في هذه الدراسة إثبات ورد على ما شاع بين المختصين بدراسة الألسنية في الغرب من أن اللغات السامية ومنها العربية ناقصة الدلالة على الزمن بأفعالها، فالعربية ليس فيها إلا فعلين منجز أو غير منجز،–من جهة نظرهم–، فهي لا تهتم بصيغ الأفعال الثلاثة وفروعها بقدر ما تهتم بالحدث المنتهي والحدث الذي لم ينتهِ(٥)فهذه الدراسة وإن لم تكن مختصة بالأفعال الزمنية إلا أن حديثها عن الزمن بأشكال متعددة ليثبت ويدعم "بأن اللغة التي استطاعت أن تجسد الوقت بألفاظ كالضحى والشروق والفجر والبكور والغدو رغم صعوبة التفرقة بين هذه الأوقات في كثير من اللغات الأخرى إلا بالجمل

(١) مطلوب، أحمد، **القزويني وشروح التلخيص**، مكتبة النهضة، بغداد، العراق، ١٩٨٦م، ط: ٢، ص: ٥٢٤

(٢) مطلوب، أحمد، **القزويني وشروح التلخيص**، ص: ٥٦٩، ٥٠٣

(٣) مطلوب، أحمد، **القزويني وشروح التلخيص**، ، ص: ٦٠٠، المراغي، أحمد مصطفى، تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها، شركة مكتبة مطبعة مصطفى الباي الحلبي وأولاده بمصر، ١٩٥٠م، ط١، ص: ١٧٩

(٤) الملاخ، امحمد، **الزمن في الخطاب مقاربة تداولية معرفية**، المغرب، الدار العربية للعلوم ناشرون،٢٠٠٩م، ط: ١، ص: ٦٧.

(٥) عبد الجبار توأمة، **زمن الفعل في اللغة العربية قرائنه و وجهاته**، دراسات في النحو العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٩٤م ط: ب، ت، ص: ٧٦، ٧٧.

والتراكيب، فليس من الطبيعي أن يبلغ إحساس القوم بالزمن ثم يخلو كلامهم من الدلالة على الإحساس في مواضع مختلفة" [١] .

منهج البحث:

اتبعت هذه الدراسة المنهج الوصفي التحليلي من جمع للشواهد، لتنتظم في تقسيمات، وفق نظرة زمن الحدث وزمن الحديث عنه ومحور آخر وفق تقديم عقرب الزمن في السياق أو تأخيره أو تصفير السياق من الحس الزمني

الدراسات المشابهه:

وهي إما في اتجاه النحو أو في البلاغة، وفي حقيقة الأمر لم أعثر على دراسة تناولت الزمن وفق ما جاء في شروح التلخيص الثلاثة أو غير الثلاثة حسب ما أعلم، أما ما أشبهه الدراسة من حيث الزمن في الدرس البلاغي، فهناك ثلاث دراسات أطروحتان ومؤلَّف، أما المؤلف فهو لإسماعيل شكري "في معرفة الخطاب الشعري دلالة الزمان وبلاغة الجهة"، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٩م، والكتاب بعيد الطرح عن هذه الدراسة حيث إنه كما ذكر جميل حمداوي: "بأنه اهتم بالجهة البلاغية باستثمار آلية التكرار، فهو يحيلنا على بلاغة الجهة بالخصوص، على أساس أن التكرار هو بمثابة إيقاع زمني دائري يتحكم في مقومات التشاكل، ويسمى أيضا بتكرار الوضع"[٢].

أما ما يخص الأطروحتان فهما الأقرب بالنسبة لهذه الدراسة من حيث الاختصاص البلاغي إلا أن الدراستين اتجهتا نحو التأصيل لمصطلح الزمن البلاغي على أبواب البلاغة المتعددة، وهما طور الإعداد ولم يتم مناقشتهما بعد وقد اطلعت على خطتهما بعد التواصل مع مشرف الأولى ومع الباحث ذاته في الدراسة الثانية، وهما:

١- "الزمن البلاغي تأصيل وتطبيق مدح الذات في شعر المتنبي نموذجا"، سراب بنت صالح بن صبيح، إشراف: د. زكية السليس العتيبي، رسالة ماجستير، جامعة الأميرة نورة بنت عبد الرحمن

(١) العقاد، عباس محمود ، **الزمن في اللغة**، مجلة الأديب اللبنانية، العدد: ٦،١ يونيو ١٩٦٠م، ص: ٢، العقاد، عباس محمود، اللغة الشاعرة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، ٢٠١٣م، ب، ت، ص: ٤٤.

(٢) شكري، إسماعيل، **في معرفة الخطاب الشعري: دلالة الزمان وبلاغة الجهة**، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط:١، ٢٠٠٩م. ص: ٥٥، حمداوي، جميل، مفهوم **الجهة في اللسانيات**، الألوكة ، المغرب، ٢٠١٦م، ط: ١، ص: ١٦.

السعودية–١٤٣٧هـ–١٤٣٨هـ، تناولت الزمن كما ذكرت في خطة رسالتها من حيث زمن المتكلم لا بألفاظه المعجمية، كما أنها تناولته قبل عبد القاهر الجرجاني وحتى القزويني.

٢– "الزمان في البلاغة العربية"، ضياء حسين محب الدين، إشراف: د. البدري الأمين دفع الله، جامعة الجزيرة، السودان، ٢٠١٧م، وتم توزيع أبواب وفصول الرسالة على أبواب البلاغة الثلاثة، في حين أن دراستي أتت على محاور مختلفة لا من حيث الأبواب البلاغية بل من حيث دوائر الزمن ومراتب الزمن من حيث تقديم الزمن أو تأخيره أو امتلاء السياق بالزمن أو تصفيره، وبهذا يتضح الفرق بين الدراستين وهذه الدراسة من حيث التقسيم والتناول والتخصيص لشراح بعينهم، وقد علمت بالرسالتين بعد الانتهاء من هذه الدراسة بوقت طويل.

أما الدراسات التي تكلمت عن الزمن من الناحية النحوية فهي كثيرة جدًا وحدودها نحوية لسانية صرفية مقارنة بين اللغات في كثير من الأحيان، ولم يكن جانب المعنى ومعنى المعنى بالتفضيل هاجسها لها، وإن تطرقت له بصور مبسطة، وعلى سبيل المثال لا لحصر:

١– زمن الفعل في اللغة العربية قرائنه وجهاته دراسات في النحو العربي، عبد الجبار توأمة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٩٤م ط: ب، ت.

٢– الزمن في الخطاب مقاربة تداولية معرفية، امحمد الملاخ، الرباط–المغرب، الدار العربية للعلوم ناشرون،٢٠٠٩م، ط: ١.

٣–دلالة الزمن في اللغة العربية دراسة النسق الزمني للأفعال، دار توبقال، عبد المجيد جحفة، الدار البيضاء، المغرب، ٢٠٠٧م، ط: ١،

٤– مفهوم الجهة في اللسانيات، جميل حمداوي، الألوكة، المغرب، ٢٠١٦م، ط: ١.

والدراسات السابقة نحوية صرفية لسانية خالصة لم تتطرق إلى البلاغة البلاغين ولها من القيمية العلمية مالا يغضُّ منها.

خطة البحث:

اشتملت هذه الدراسة على ثلاثة محاور:

١. دائرة الحس الزمني في الدرس البلاغي دراسة عمودية:

أ– زمن الحدث

ب– زمن الحديث عنه.

٢- مراتب الحس الزمني في الدرس البلاغي التنبؤي الاستشرافي أو التراجعي المتأخر دراسة أفقية.

أ- يقظة الحس البلاغي الزمني التنبؤي" الاستشرافي" السابق لوقته.

ب- يقظة الحس البلاغي الزمني التراجعي المتأخر عن وقته.

٣- يقظة الحس البلاغي من تغييب الزمن وتصفيره.

أولا: دائرة الحس الزمني في الدرس البلاغي:

وهو محور عمودي يضرب عمق الزمن فيقسمه إلى شقين:

أ- زمن الحدث مثل: التعبير بالمسند الفعلي بدلاً من الجملة الاسمية أو الاسم.

ب-زمن الحديث عنه، مثل: الانتقال من ضمير الغائب إلى ضمير المتكلم في الالتفات.

أ- زمن الحدث:

أدرك البلاغيون أن لزمن الحدث في صنعتهم دوالَّ زمنية ذات مغازٍ بعيدة، بل كان من المسلمات لديهم فتحدثوا عن مزية المسند الفعلي عن غيره لما فيه من اختزال وانكماش للحدث والزمن، دون أن يحتاج إلى ضميمة أو قرينة تبين ذلك؛ مما يجعله أقرب إلى الاختصار، الذي هو آنس للبلاغة وأكثر سكنًا لها.

قال السبكي: (يكون المسند فعلاً لدلالته على أحد الأزمنة مع الاختصار؛ لأن قولك: "زيد قائم" يدل على وقوع قيامه في الماضي مع الاختصار، فإنه يغني عن قولك: "قائم في الماضي" والفعل حيث وقع دل على التقييد بأحد الأزمنة الثلاثة، إما معنيًا مثل: "قام" حيث لم يقع صلة، أو صفة لنكرة عامة، أو في شرط، ومثل: "سيقوم" وإما مبهما بين أمرين مثل المضارع إذا قلنا: إنه محتمل للحال والاستقبال، والماضي إذا وقع صفة أو صلة لنكرة عامة فإنه يحتمل المضي والاستقبال والحال....خلافا لقول ابن مالك: "يحتمل المضي والاستقبال فإنها عبارة قاصرة لعدم ذكر الحال، ودلالة الفعل على الزمان بالتضمن بخلاف دلالة "قائم" على الحال؛ فإنها ليست بالتضمن بل الالتزام والتحقيق أن الفعل الواقع صلة سلب الدلالة على تعين الزمان وصار صالحا للأزمنة الثلاثة مضارعا كان أم ماضيا) [(١)].

(١) السبكي، بهاء الدين أحمد بن علي، **عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح**، تحقيق: خليل إبراهيم خليل، ج:١، ط: ١، بيروت-لبنان، دار الكتب العلمية، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م، ص: ١/ ٤١٣.

فالحس الزمني عندهم دقيق لارتباطه بالسياق الفعلي للنص، فالفعل المضارع "ينجح" في قولنا: "محمد الذي ينجح رأيته" ليس حِجْرا على الاستقبال بقدر ما هو تحديد لصفة محمد المعنِي، ولم يكتفِ البلاغي ونعند حدود هذا بل كانوا مدركين أن الزمن الواحد ينتج عن تمثلات ذهنية متعددة ينتقي منها المتكلم ما يناسب السياق الحالي، فالتمثل الذهني المعرفي صيرورة مركبة تعتمد على خلق وتعديل وتجميع لتمثلُات ذهنية لتأويل الملفوظ: ومن تلك الصيرورة المركبة أن الفعل إذا جاء واصفًا للحال فهو لا يعني المضي بمعناه الحرفي ولا الاستقبال بمعناه المتقدم الدقيق، بل نراه كما يقول السعد: أنه يعني (أجزاء من أواخر الماضي وأوائل المستقبل متعاقبة من غير مهلة وتراخٍ، كما في "زيد يصلي" والحال أن بعض صلاته ماضٍ وبعضها باقٍ فجعلوا الصلاة الواقعة في الأنات الكثيرة المتعاقبة واقعة في الحال)[١]، وفي قولهم: "أجزاء من الماضي والمستقبل" نجد حِسًّا زمنيا رمادياً متداخلًا عند البلاغيين دون القطع بانتمائه إلى أي وقت.

وتنبه البلاغيون إلى دقيقة وهيأن ارتباط الفعل بقرينه كما في الفعل المضارع لا ينافي سمة الاختزال والانكماش في الفعل، فالعصام يقرر أن هذا زيادة في المعنى بطريقة التدرج لتعين أمر ما بطريقة أكثر اختصارًا من التعبير بالمسند الاسمي، يقول العصام: (فإن قلتَ: لا يرجِّح ذلك الفعل المضارع على الاسم؛ لأنَّ تقييده بأحد الأزمنة يتوقف على القرينة لاشتراكه، قلتُ: يحصل التقييد بدون القرينة بأَحد الأزمنة بمقتضى الوضع لا محالةَ، وإنَّما يُحتاج إلى القرينة لتعيين المراد.

فإن قلتَ: فما الفائدة في الإيراد فعلاً ولا مندوحةَ عن القرينة إلا أنَّ القرينة هنا لتعيين المراد، وفي الاسم للتقييد؟ قلتُ: فائدته التدرُّج في التعيين، وذلك موجبٌ لمزيد التقرُّر.

بَقِي أنه لا تظهر منافاةُ التقييد بالقرينة العقلية التقييدَ على أخصر وجهٍ؛ إذ القرينة العقلية لم تُعَدَّ مِن موجبات الإطناب، وكيف لا؟ وإيجازُ الحذف لا يُعقل بدون القرينة!)[٢].

ولثنائية الاسم والفعل مساحتها في الدرس البلاغي فهي تدور على قطبين متناقضين موجب الحركة في الفعل وهو الحدث وزمنه وسلبها وهي الثبوت والاستمرار في المسند في الاسمي، لنجد السبكي والسعد يتناولان الزمن بطريقة فنية ضاربين المثل بشواهد وأمثلة، كقول طريف:

(١) التفتازاني، سعد الدين بن مسعود بن عمر، **المطول شرح تلخيص المفتاح**، صححه وعلق عليه: أحمد عزو عناية، ط: ١، بيروت– لبنان، دار إحياء التراث، ١٤٢٥هـ، ص: ٣٠٠.

(٢) الاسفرائيني، عصام الدين إبراهيم بن محمد، **الأطول على تلخيص المفتاح**، دراسة وتحقيق: محمد الخراز، رسالة جامعية جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية الرياض السعودية ،١٤٢٣هـ-١٤٣٤هـ، ج: ٢، ص: ٤٨٨، ٤٨٩.

أَوَ كُلَّمَا وَردتْ عكَاظَ قَبِيلَةٌ بَعثُوا إليَّ عَرِيفَـهُـمْ يَتَوَسَّــمُ (يذكر الشاعر بسالته وشهرته، وأنه كلما وردت قبيلة سوق عكاظ أرسلوا القيم على أمرهم يتوسم الوجوه؛ ليتعرف على طريف طلبا للثأر منه؛ لأن له في كل قوم نكاية، ولو وضع الاسم موضع الفعل، وقال: بعثوا إلي عريفهم متوسما، لذهب من المعنى شكله ورواؤه، وفسد الكلام، وذلك لأنه أراد أن العريف يقع منه التوسم والتعرف والتأمل شيئا فشيئا، فهو دائب المراجعة والتصفح، وتجديد النظر في وجوه القوم، وهذا يعني أنه معنِيٌ جدا بالبحث عن طريف، ولو قال: "متوسما" لكان المعنى أن العريف على صفة التوسم، والتأمل دون إشعار بحالة التجديد، وإذا عرفت هذه الخصوصية في دلالة الفعل ودلالة الاسم وهي الخصوصية التي تشتد الحاجة إلى معرفتها في علم البلاغة) [(١)]كما يقول الجرجاني: (فاعلم أن الفعل يفيد أيضا تقييد المسند بأحد الأزمنة التي يدل الفعل عليها، فإذا كان ماضياً فإنه يقيد الحدث بالزمن الماضي، وإذا كان مضارعا قيده بحال، وهكذا، وذلك بخلاف الاسم، فإنه لا يدل على زمان) [(٢)].

فالزمن عملية متحركة متجددة، له مسار متجدد لغرض بلاغي يخدم السياق، وهنا يحدد الحس الزمني تمثلات ذهنية لها مسار يريد المتكلم توجيهه حامله، فهو حين أراد أن يصف القيم وصفه بفعل متكرر الزمن لتجدد الحدث، ولذلك وقف عنده أرباب البلاغة بنوع من القراءة الواسعة التي تبين مسار الزمن ومحوره العمودي، ففي المسند الفعلي انكماش واختزال لمعانٍ لم يكن بالممكن طرحها بصورة مختصرة لولا الاستناد عموديًا على العقرب الزمني للفعل.

وقد يتبادر للمتمعن استدراك على البلاغيين الذين أكدوا أن التجدد من أهم ما يميز النكات البلاغية في المسند الفعلي، فكيف يتجدد الماضي وهو ماضٍ فالماضي مفرغ من الحاضر؟

ولم يفت مجهرهم أنَّ "كلما" الشرطية في قول طريف هي من منحت التجدد للفعل الماضي: (لأن كل فعل حادث تجدد بعد أن لم يكن، ولا نعني قولنا: "قام زيد" يدل على أنهلم يكن قائما على الدوام؛ لصحة قولنا: "أحيا الله زيداً"، وإن كان لم يزل حياً منذ صدق عليه اسم زيد، ولكن مدلول الفعل التجدد، وذلك أعم من تجدد شيء يتقدمه مثله أولا، فإن الأفعال المستمرة ليست فعلا وحدا، بل الفعل في كل وقت غير الفعل في الوقت الذي قبله، وإن اتحد بالنوع)[(٣)]، ويذيل السبكي كلامه مباشرة بوقفة مبسطة في ماهية التجدد في الفعل فالماضي تجدده في الحصول والمضارع تجدده في التكرار والوقوع

(١) أبو موسى، محمد محمد، **خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني**، ط:٥، مصر، مكتبة وهبة، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م، ص: ٢٩٩، ينظر السبكي، **عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح**: ٢/ ٤١٣، ٤١٤، العصام/ **المطول شرح تلخيص المفتاح**، ص: ٣٠٠.

(٢) أبو موسى، محمد محمد، **خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني**: ص: ٢٩٩

(٣) السبكي، **عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح**: ١/ ٣١٦

مرة بعد مرة أخرى، وفي هذا التفاتة حسنة على دقائق الزمن والعلة من تكرار الزمن وحدوث الحدث فيه.

ومن زاوية أخرى للحس البلاغي يقارن بين المسند الاسمي والمسند الفعلي عندما استدعوا الشاهد الشعري:

لاَ يأْلَفُ الدَّرْهمُ المضْرُوبُ صُرَّتَنَا ... لكِنْ يَمُرُّ عَلَيهَا وَهْوَ مُنْطَلِقُ.

يقول السعد مُوقِفا الزمن: فـ (الانطلاق ثابت له دائم من غير اعتبار تجدد) [١]، فهو يوقف عقارب الزمن لإفادتها التلاشي والجمود، قال الشيخ (هذا هو الحُسْنُ اللائقُ بالمعنى، ولو قلتَه بالفعل: "لكنْ يَمُرُّ عليها وهو ينطلقُ" لم يحسن الفرق بين الخبر صفة مشبهة، والخبر إذا كان فعلا: فموضوع الاسم أن يثبت الشيء للشيء من غير اقتضاء أنه يتجدد فالمقصد من قولنا: "زيد منطلق "إثبات الانطلاق، أما "ينطلق" فالغرض التجدد جزء فجزء، فلا يستوي "زيد منطلق" و"زيد ينطلق"[٢]، فالاسم مفرغٌ من التجدد خالٍ منه.

فقد حرصوا على التفرقة بين السياقات النصية والتراكيب الصرفية المتشابهة فاسم الفاعل يلزم الثبات حتى لو عمل في حين أن للفعل العكس، وهو الأنسب لبيت الشعر لثبات صفة الكرم، و يذكر السبكي أن هناك ما ينضم إلى اسم الفاعل فيجعله دالاً على زمن مثل: "زيد الضارب أمس" مما يجعله معرِض المدح أو الذم، (فإن قلنا بأن: "زيد ضارب الآن أو أمس أو غدًا" لا يدل على الثبوت لتقييده بالزمن الدال على التجدد ولاسيما "ضارب غدا"، وإن لم يقيد بظرف فهو مصروف إلى الحال قلت: الدلالة على التجدد عند التقييد بالظرف إنما هو بناء على أن الظرف ينفي الوقوع في غيره بالمفهوم، ولا نسلمه، كما هو قول مشهور في مفهوم الصفة، وإن كان مرجوحا فقد سلمناه فقد يقال: إننا نعني الثبوت وعدم التجدد بالنسبة إلى ذلك الظرف، فقولنا: "زيد ضارب غدًا" معناه أن الضرب الذي سيقع منه غدا يقع ثابتا مستقرا سواء كان موجودًا قبل ذلك أم لا، بخلاف "زيد يضرب غدًا" فإنه يدل على أنه يتجدد له في غد ضرب، فلا معارضة حينئذ بين مفهوم الظرف ودلالة الاسم على الثبوت سلمنا ذلك كله، فالاسم إنما يدل على الثبوت ما لم يعمل) [٣].

(١) العصام، **المطول شرح تلخيص المفتاح**: ص: ٣١٤

(٢) الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن، قرأ وعلق عليه: محمود شاكر، **دلائل الإعجاز**، ط: ٥، مصر، الشركة الدولية للطباعة والنشر، ١٤٢٤هـ ٢٠٠٢م، ص:١٧٧– ١٧٨.

(٣) السبكي، **عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح**: ١/ ٤١٤.

وفي نهاية هذا المحور اتضح أن دراستهم للزمن عموديًا جاءت من عمق الحدث ومبدأ الصمت وما يطويه من ثبات وصمت للأشياء وحركتها، وما في الحركة من انطلاق ماضوي وآني ومستقبلي ومثله الضجيج، مع حرص على التمثيل والتعليل على أسس منطقية نحوية بحتة، ومنها نزداد يقيناً أن رهافة الأذن البلاغية في استشعار حساسية مقياس الزمن كما لحظنا في "زيد ينجح" و "زيد الذي ينجح رأيته" مثلاً، وتغير مسار الزمن عمودياً إلى ترددات وتدخلات ما بين الماضي والمضارع تحددها مساقات وضمائم معرفية تحتضنها أوعية اللغة.

ب- زمن الحديث عن الحدث:

تأهب الدرس البلاغي لانحرافات مسار الحديث عن زمن الحدث وأفرد له وقتا ليس باليسير، وقد تمّ تداوله على شكل من التفكير العقلي الذي ملأ كتبهم وشروحهم، فجاءت سياقاتهم النصية معبرة عن فكر ظُلِم في كثير من الأحايين، وظَلَم في أحيان أخر، فقد ظُلِم عندما قصُرت الأفهام والمدارك عنه عندما تأدلجت بأن ما ورد في شروحهم عقما وسما بمجمله دونما تمحيص لقول شاع وذاع، ولا نخفي بأنها ظَلَمت حين أُكثر من الجرعات المنطقية التي قتلت روح الفن البلاغية، وبين هذا وذاك قراءات نافعة لو استغلت وأحسن استغلالها.

وفي مسار عمودي آخر للزمن ضمن دائرة زمن الحديث سواء كان في الزمن الحاضر ضميره أو الغائب، وكأنها دائرة خارج دائرة، ومن ذلك صور الالتفات مثلا، فهو الانتقال من ضمير المتكلم إلى ضمير المخاطب، ضمن تشكلات خطابية وأنساقٍ نصية عنى بها أصحاب الدرس البلاغي المنطقي على وجه الخصوص، لما في ذلك الانتقال من حصار نفسي للتواجد الذهني عند المتلقي في الفلك النصي، مما يخلق دائرة للتواصل بين المتحدث والمتلقي فتتبلور الرسالة بينهما، وذلك مما أنبتته تربة أصحاب الدرس البلاغي من تردد الحس الزمني بين ما ينبغي أن يكون عليه إلى ما أخرجته مقاصد المتكلمين ومشارب المتحدثين.

ولاشك أن حديثهم عن الالتفات من أوائل ما يطالعنا في زمن الحديث عن الحدث فقد عُرف الالتفات بأنه: العدول من متكلم إلى خطاب ومن خطاب إلى غيبة، ومن متكلم إلى غيبة، ولك أن تعكس الثلاثة في الثلاثة فهو التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة، وقد اخترت هذا الوجه الذي ارتضاه أغلب البلاغيين وعلى رأسهم السكاكي[1]، و قيَّد الخطيب الالتفات بقوله: (بعد التعبير

(١) ينظر السكاكي، **مفتاح العلوم**، ص: ٢٩٦، وينظر: مطلوب، أحمد، **معجم المصطلحات البلاغية وتطورها** عربي- عربي، ط:٢، بيروت- لبنان، مكتبة لبنان ناشرون، ١٩٨٩هـ ١٩٩٦م، ص: ١٧٣ وما بعدها .

عنه بطريق آخر منها، وهذا أخص من تفسير السكاكي؛ لأنه أراد بالنقل أن يعبر بطريق من هذه الطرق عما عبر عنه بغيره أو كان مقتضى الظاهر أن يعبر عنه بغيره)[١].

والواضح من قولهم: بعد التعبير عنه بطريق آخر منها، أنه لا يكون في أول الكلام سواء وافق مقتضى الظاهر أو خالفه، فقول القائل وهو يعنى نفسه: (ويحك ما فعلت وما صنعت) ليس التفاتا عند الجمهور، وإن كان مقتضى الظاهر أن يقول: (ويحي ما فعلت وما صنعت)، ومثل هذا كثير في الشعر وخاصة في مطالع القصائد، وهذا يعد التفاتا عند السكاكي، فهو يعني به أن يعبر بطريق من هذه الطرق عما عبر عنه بغيره ، أو كان مقتضى الظاهر أن يعبر عنه بغيره، وهذا القسم الأخير هو مما خالف فيه الجمهور، ويشمل ما ذكرناه من قول القائل: "ويحك ما فعلت" لأنه عبر عن المتكلم بطريق المخاطب، وكان مقتضى الظاهر أن يعبر عنه بطريق التكلم[٢].

فالالتفات عند الجمهور من شرطه أن يأتي في أول الكلام بعد أن يأتي الكلام موافقًا لظاهر الكلام، فالمتكلم بعد أن يعبر عن ذات بإحدى الطرق الثلاثة من تكلم أو غيبه أو خطاب ينتقل في كلامه، فيعبر عن تلك الذات بطريق آخر من تلك الطرق الثلاثة، وخالفهم السكاكي فجعل مسمى الالتفات أن يعبر عن ذات بطريق من طرق التكلم أو الخطاب أو الغيبة عادلاً عن أحدهما الذي هو الأحق بالتعبير في ذلك الكلام إلى طريق آخر منها، ويظهر أثر الخلاف بين الجمهور والسكاكي في المحسن الذي يسمى بالتجريد[٣].

وإن كانت هذه الدراسة لا تعني بخلافات البلاغيين بقدر ما تعني بفكرهم الزمني، فالسكاكي وقبله الزمخشري لا يشترطان أن يسبق التعبيرَ تعبيرٌ آخر، فالفكر الزمني عند الزمخشري والسكاكي هو المباغتة في تصفير الزمن والعدول من ضمير إلى ضمير، لا يشترطه تقدم تعبير آخر يتحقق فيه معنى الالتفات من جهة المتكلم، فالزمن يُصَفَّر ليحدث الإيقاظ والتنبيه، وكأنَّ إيقاع ارتفاع التسارع

(١) ينظر القزويني، محمد بن عبد الرحمن، شرح وتعليق: محمد السعدي فرهود، عبد المنعم خفاجي، عبد العزيز شرف، **الإيضاح في علوم البلاغة**، ج: ١، ط: ٦، مصر–بيروت، دار الكتاب، ١٤٢٥هـ،٢٠٠٤م، ص: ١/ ٧٢

(٢) أبو موسى، **خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني**: ص:٢٥١

(٣)التجريد: انتزاع أمر من آخر مطلقاً، ونكتته العامة التفنن في الأسلوب كالالتفات لتقاربهما، وأن كان مبني الالتفات على اتحاد المعنى، ومبني التجريد على التغاير بينهما بحسب الاعتياد، وقد يجتمعان وقد ينفرد الالتفات، وقد ينفرد التجريد، وفي التجريد فائدتان: طلب التوسع في الكلام، وتمكين المخاطب من إجراء الأوصاف المقصودة من مدح أو غيره على نفسه، إذ يكون مخاطباً بها غيره، فيكون أعذر له، ينظر الخطيب، **الإيضاح في علوم البلاغة**: ٥٢٨/٢، مطلوب، **معجم المصطلحات البلاغية وتطورها**: ٢٥٨ وما بعدها، وينظر الهاشمي، أحمد، ضبط وتدقيق: يوسف الصميلي، **جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع**، ط:١،بيروت– لبنان، المكتبة العصرية، ١٩٩٩م ص: ٣٠٨.

الزمني مؤشر إلى البدء من الصفر ليرتفع فجأة، فيكون الإيقاظ والتنبيه للفت الذهن القرائي أو السماعي، في حين يكون فكر الجمهور أن فائدة الالتفات منتفية في مذهب السكاكي، فهي غير موجودة في مذهبه؛ لأن المزية في الالتفات هو اعتياد المتلقي على زمن ليباغت بزمن آخر مغاير، أما بداية الكلام فمن المُسلم به أن تأتي على الأصل قال أحد شراح التلخيص –ابن يعقوب المغربي–: فـ (الكلام إذا نقل من أسلوب إلى غيره كان أكثر إيقاظاً للإصغاء إليه لا يظهر فيما إذا لم يتقدم تعبير آخر، فإن التعبير الأول يرد غالباً قبل ارتقاب ما يصلح للمقام، فلا يتحقق تجديد مالا يرتقب، فليتأمل)[1]، وكأن تصفير الزمن والبداية من الصفر عنده–أي السكاكي– من جماليات السياق النصي.

وفي سياق بلاغي للعصام تظهر لنا يقظة زمن الحديث عن زمن الحدث بمناقشة عقلية متمحصة للآراء والرد عليها عند الوقوف على رأي السكاكي في الالتفاتات عند الأبيات التالية:

تطاولَ ليلُكَ بالأَثْمُدِ وبَاتَ الخليُّ ولمْ تَرقُـدِ.

وباتَ وباتتْ لهُ ليلةٌ كَلَيْلَةِ ذِي العائرِ الأَرمَدِ.

وذلكَ مِن نبأٍ جاءنِيْوخُبِّرتُه عن أبي الأسـودِ.

قال العصام: (وتجويزُ أن يكون قوله مبنياً على أنَّ الانتقال مِن الخطاب إلى الغيبة وإلى التكلم التفاتان، ومِن الغيبة إلى التكلم التفاتٌ آخر باطل؛ إذْ لا انتقال مِن الخطاب إلا إلى الغيبة؛ لأنه إذا انتقل إلى الغيبة لم يَبق في الخطاب حتى يَنتقلَ عنه إلى التكلم، وكذا تجويز أن يكون أحد الالتفاتات الالتفات مِن الغيبة إلى الخطاب في "ذلك"؛ لأنَّ كون خطاب "ذلك" إلى نفسه غيرُ ظاهر فلا ينافي ذلك التجويزُ كونَ كلامِ الكشاف ظاهراً فيما قاله السكاكي)[2].

ونرى السعد والعصام يبديان براعة في استنطاق الزمن فيطرحان رأياً يتردد وهو أن الالتفات الذي قصده الزمخشري أتى من الانتقال من "ليلك" إلى مخاطب إلى "بات" الغائب، ومن "ليلك" إلى "جاءني" المتكلم.

---

(١) المغربي، أحمد بن يعقوب، **مواهب الفتاح على تلخيص المفتاح**، تحقيق: خليل إبراهيم خليل، ج: ١، ط: ١، بيروت–لبنان، دار الكتب العلمية،١٤٢٣هـ٢٠٠٢، ص:٢٧٣، ينظر الدسوقي، محمد عرفة، تحقيق: خليل إبراهيم خليل، **حاشية الدسوقي على مختصر السعد**، ج: ١، ط: ١، بيروت– لبنان، دار الكتب العلمية، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م، ص: ٧٥٤.

(٢) العصام، **الأطول على شرح تلخيص المفتاح**، ص: ٣٤٤.

ورأي آخر يرى في ذلك انتقالاً من الغائب إلى المتكلم في كلمة "ذلك"، ويقفان لتمحيص الرأي الأول والثاني ويتضح دقة مدلول الزمن في درسهما البلاغي فبداية:

"بات" الغائب

⇓

"ذلك" المتكلم

"ليلك" مخاطب أو "ليلك" مخاطب

⇓ .

"بات" الغائب " جاءني" المتكلم

الرأي الآخر:

"بات" الغائب

⇓

"ذلك" المتكلم.

فمسار الخطاب المعلوم الموجود في زمن الحديث عن الحدث–كما في المخاطب والمتكلم –إلى غير الموجود في زمن الحديث–كما في الغائب–الذي تلاشى وجوده لحظة الحديث يكون مسار الخطاب قد دخل في ظلام، فكيف للزمن أن يخرج مرة أخرى؟!

أي زمن حديث المخاطب موجود ظاهر، فالخروج عادة يكون من الأوضح لا من المبهم الغائب، فيجيب السعد على هذا التساؤلات: (فالجواب إنما يكون الانتقال في شيء حاصل واقعٍ عليه أسلوب الكلام وبعد الانتقال من الخطاب في "ليلك" إلى الغيبة في "بات" قد اضمحل الخطاب وسار الأسلوب أسلوب غيبة فلا يكون الانتقال في التكلم إلى الغيبة في "جاءني" إلا من الغيبة نفسها)[١]، وفي رأيهم هذا يؤكدون أن الانتقال يكون من المعلوم إلى غير المعلوم ولا عكس، مشترطين أن يكون البدء من دائرة الحديث عن الحدث.

(١) السعد، **المطول شرح تلخيص المفتاح**، ص:٢٨٩.

وعرض السعد أيضًا الرأي الثاني في أنَّ الانتقال في البيت الأخير ليس إلى "جاءني" بل إلى "ذلك" فيكون:

"ليلك" مخاطب ⟸ "بات" الغائب ⟸ "ذلك" المخاطب

ليحسم السعد والعصام عامل الزمن عبر عودة الضمير لمن، وفي هذا دقة زمنية أخرى فالمساحة الزمنية محدودة لها مرجعيتها التي تعود إليها، فالزمن للضبط لا للفوضى والعموم، فـ (خطاب "ذلك" إلى نفسه غيرُ ظاهر فلا ينافي ذلك التجويزُ كونَ كلامِ الكشاف ظاهراً فيما قاله السكاكي)، فالكاف قد تكون لمن يتلقى منه الكلام، فمرجع الضمير في "ذلك" غير ظاهر [1] .

فالسعد يبين أن الغائب هذا حاصل بدليل ما سبق، فالانتقال من الغيبة إلى المتكلم ومن المبهم للمعلوم لا يكون عسيرا باعتبار النص.

ومن أمثلة الدقة الزمنية في الحديث عن زمن الحدث في قوله تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾- يس: ٢٢- نرى السعد يحاول أن يطرح تساؤلاً في مرجع ضمير المخاطبين "ترجعون" غير عائد إلى ذات ضمير المتكلم في "أعبد"؛ وأنها واردة لجمع ما يناسب مقتضى الظاهر ثم يقول- أي السعد-: (فإن قلتَ: حينئذٍ يكون قوله: "ترجعون" وارداً على مقتضى الظاهر؛ والالتفاتُ يجب أن يكون على خلاف مقتضى الظاهر قلتُ: لا نُسلّم أنَّ قوله: "ترجعون" على مقتضى الظاهر؛ لأنَّ الظاهر يقتضي ألاّ يغير أسلوب الكلام، ويجري اللاحقُ على سنن السابق)[2].

وهنا خط زمني رسمه الشارح المحقق في شعرية التفات الكلام المطابق للحال يتتابع ولا يتغاير وما حصل في الآية الكريمة اختلاف في وجود زمن الضمير، فكان زمن الضمير موجودا في "أعبد" ومخاطباً في "ترجعون" فلابد أن يكون زمن أحد الفعلين.

ولم تمر وقفة السعد على العصام دون حوار قرائي لها فنراه يقف عند قوله تعالى:﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾أ-يس: ٢٢-مكانَ" أُرجَعُ"؛ فإنّ ما عَبَّر عنه بضمير المتكلم في "أعبد" أَبرَزه بصورة الخطاب في "ترجعون"؛ لأنه داخل في "ترجعون" والمعنى: أُرجع وتُرجعون، فيكون مسار الحديث:

(١) العصام، **الأطول على شرح تلخيص المفتاح**، ص: ٤٣٤.
(٢) المرجع نفسه، ص: ٤٣٥.

متكلم ⟸ غائب.

ويسترسل في الحديث لينقل رأي السعد ويفنده، قال على لسان السعد: (فإن قلتَ: "ترجعون" ليس خطاباً لنفسه حتى يكون المعبَّر عنه واحداً، قلتُ: نعم، ولكن المراد بقوله: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ﴾

المخاطبون، والمعنَى: وما لكم لا تعبدون الذي فطركم فالمعبر عنه في الجميع المخاطبون، وفيه نَظَرٌ؛ لأنه لم يُعبّر عن المخاطبين بضمير المتكلم، بل إنهم المعرّض بهم بهذا الكلام مِن غير الدخول في العبارة ونظم التركيب، فالعصام يستدرك بأن السياق القرآني لم يعبر بضمير الجمع في "أعبد" كما في "ترجعون".

ولنقف على المسائل الزمنية الواردة في حديث العصام هنا:

١- العدول من المتكلم في ضمير" أعبد" إلى المخاطب في "ترجعون".

"أعبد" متكلم مفرد

↓

"ترجعون" مخاطب جمع

٢- خروج المخاطبين من دائرة زمن المتكلم في "أعبد" باعتباره تعريضاً لهم وإشارة.

٣- "ترجعون"هل هي ورادة في نفس زمن نطق متحدثها بها أم أنها خلاف حال زمن النطق بها؟

لنجد في نهاية الحديث أن حديثهم عن زمن الحدث ارتبط بتصفير الزمن في أول الكلام ليتردد ثانيًا فزمن الغياب من الصعب الانتقال منه لمجهولية الزمن وغموضه، كأن للزمن رتبًا في الحديث عن الحدث ليتصدرها المتكلم ثم المخاطب ثم الغائب، وفي هذا (تعميق لمفهوم المنظور الزمني الذي أضحى مقرونا بوعي الفاعل والمتلفظ وقد أطلق عليه البعض في علم الخطاب بـ "بتذويت المنظور الزمني" ولهذا التصور نتائج مهمة في تفسير استعمال الأزمنة والتباسها الدلالي في سياق السرد) [١]، كما في الالتفاتات الواردة في الأبيات السابقة.

ثانيا: مراتب الحس البلاغي الزمني: وقد تمَّ تقسيمها إلى:

أ- يقظة الحس البلاغي الزمني التنبؤي "الاستشرافي" السابق لوقته.

ب- يقظة الحس البلاغي الزمني التراجعي المتأخر عن وقته.

(١) الملاخ، امحمد، **الزمن في الخطاب مقاربة تداولية معرفية**، ط: ١، الرباط-المغرب، الدار العربية للعلوم ناشرون، ٢٠٠٩م، ص: ٧١.

أ- يقظة الحس البلاغي الزمني التنبؤي" الاستشرافي" السابق لوقته.

تنبه أصحاب الدرس البلاغي إلى استباق الحس الزمني للحدث، وما ينطوي تحته من نكات بلاغية لها أثر في المعنى، فالأزمنة تتنافس فيما بينها لتمثيل حدث في سياق تواصلي محدد، لذلك فإنه ينبغي اختيار الزمن الذي ينتج تمثيلاً ذهنياً متوافقا مع الأثر الدلالي الذي يتوخاه المتكلم، فاختيار المستقبل يعد الاختيار الأكثر حياداً من المتكلم؛ لأنه لا يستوجب منه التزاما بيقين الحدث، أما اختيار الماضي فينتج أثراً ذاتياً على درجة اليقين(١).

وكان للبلاغيين وقفات جميلة اختلط فيه النظام المعرفي بالدلالة بالبنية العميقة للسياق، فالتلاعب بالأنسقة الزمنية للنص مما اعتاد عليه النظام العرفاني؛ ليقينه بدلالات عميقة لا تأتي عبر التعبير بالنسق النمطي المفروض ضمن الأنظمة اللغوية.

ومن الأساليب التي كان لحسهم الزمني وقفات ما يطالعنا في التعبير بالمضارع لفعل شرط بـ "لو" والأصل في شرطيتها أن يكون فعلها ماضٍ؛ لنكتة بلاغيه مفادها أحيانا: إبراز الحاصل في صورة غير الحاصل فتأخير لعقارب الساعة الزمنية له مغازٍ عدة.

فأداة الشرط "لو" تدخل على الفعل الماضي، فهي أداة للقطع بانتفاء الشرط، وقد تدخل على الفعل المضارع؛ لنكتة بلاغية حسب مقتضى السياق، مثل تنزيل الشرط منزلة الماضي لصدور هذا الشرط عمن لا يخلف ولا يُكذَّب في إخباره(٢)، مثل قوله تعالى: الأنعام:﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الأنعام٢٧، وقد تناول البلاغيون رأي الخطيب بين تأويل وتفسير واختلاف واقتراب في مقياس خروج سياق "لو" عن المضي إلى المضارع وحقها الماضوية.

فرأى السعد أن الغرض من التعبير بالمستقبل بدل الماضي في "ترى" بمنزلة الماضي المتحقق الواقع هو استحضار لأمر مستقبلي لم يحدث وإنزاله منزلة الآني؛ لأن هذا الأمر في يوم القيامة فهو مستقبل في التحقيق ماضٍ بحسب التأويل، كما أنه قيل قد انقضى هذا الأمر لكنك ما رأيته لو رأيته لرأيت أمراً عجيباً هكذا ينبغي أن يفهم هذا المقام)(٣).

---

(١) الملاخ، **الزمن في اللغة العربية بنياته التركيبة والدلالية**، ص: ٤٨١ ومابعدها.

(٢) ينظر، القزويني، محمد بن عبد الرحمن، **التلخيص في علوم البلاغة**، ضبطه وشرحه عبد الرحمن البرقوقي، ط:١، دار الفكر العربي، ١٩٠٤هـ-، ص: ١١٧،١١٨.

(٣) ينظر العصام، **المطول شرح تلخيص المفتاح**: ٣٣٢.

إلا أن الحس الزمني عند العصام اختلف فهو يرى أن استباق الزمن لتأويل الماضي مرفوض؛ لكون من صدر مِنه القول لا يكذَّب وهو الله سبحانه، فأمر العصام بأن لا يُلتفت إلى ما باهى به السعد في تحقيقه الذي أشرنا إليه سابقاً، قال العصام: (ولا تلتفتْ إلى ما باهى به الشارحُ المحققُ، حيث قال: فهذا مستقبل في التحقيق ماض بحسب التأويل؛ كأنه قد قيل: قد انقضى هذا الأمر، ولكنك ما رأيته ولو رأيته لرأيتَ أمراً عظيماً) [١]، ويقول: إنه جعل الأمر غير المتحقق متحققاً لصدوره عمَّن لا خلاف في إخباره، ويرى أنه لا يَلزم مِن كون ما فُرِضَ رؤيتُهُ كالمتحقق كون الرؤية كذلك، ويختم ناهياً عن الاستسلام للتقليد الذي لا يقوم عليه دليل[٢]، يقول العصام: (تأمَّلْ، ولا تذهلْ وبالتقليد عن التحقيق لا تغفل)، فعقربه الزمني يختلف عنه؛ لأن هناك فرقًا بين إخبار الصادق الذي لا يُكذب وبين افتراضه، والآية من باب افتراضه، فمؤشر الزمن عند العصام في سر دخول "لو" على المضارع يرفض أن تكون الآية من (إخبار الصادق يدل على تحققه لا محالةَ، بل هي قد تكون من فَرْضُ المخبِر الصادق الذي لا يدل على تحققه).

ويكمل العصام حديثه: (ويمكن التقصِّي عنه بأنَّ فَرْضَ الرؤية إنَّما هو بالنسبة إلى المخاطب، وأمَّا أصل الرؤية فأمْرٌ مذكور لا على وجه الفرض فكأنه قيل: تَرَى أهل النار موقوفين على النار وإنْ تر أنت لَترى أمْراً عجيبًا، فدخول "لو" يجعل "ترى" بمنزلة الماضي في تحقق أصل الرؤية الذي يُشعر به قوله: ﴿وَلَوْ تَرَى﴾).

ويصل إلى حس زمني آخر ليعتبر أن امتناع عدم وقوف الذين كفروا على النار كون الحديث منسوبًا لمخاطِب لا يُكذَّب ليرتقي حسه الزمني باعتبار المضارع كالماضي المحقق، يقول العصام: (ومِن هذا تمكنتَ من التقصيّ عن بحث آخر يوحَى –أيضاً– إلى المتفطِّن، وهو أنَّ تنزيل المضارع مَنزلة الماضي في التحقق ينافي دخول "لو" الدالة على الامتناع، فلَكَ أن تقول: الامتناعُ باعتبار الإسناد إلى المخاطبِ والتحققُ لأصل الفعل؛ فذِكْرُ "لو" للإشعار بأنَّ الرؤية بمثابةٍ مِن الهول يُظَن معها أنه يمتنع مِن المخاطب، هكذا حَقِّقِ المقام) [٣] .

ويرتقي حسه الزمني ليخرج تأويل مجيء الفعل المضارع ليقرر: أن المضارع أتى على مقتضى الظاهر:

(١) المرجع نفسه:٢/ ٥٤٥.

(٢) المرجع نفسه: ص:٢/ ٥٤٥.

(٣) ينظر العصام، **الأطول على شرح تلخيص المفتاح**، ص: ٥٤٣-٥٤٤.

(لِلإشعار باستبعاد تحققه؛ كأنه كالممتنع، وهذا الدخول لا ينافي عدم دخول "لو" إلا على الماضي–على ما هو الأصل–؛ لأنَّ ذلك في "لو" المستعملة فيما وُضعت له، لا فيما إذا استُعملتْ بمعنى "إنْ"، فإنَّ العدولَ حينئذٍ ليس في إيراد المضارع بل في إيراد" لو")[١].

وقاس ذلك بما ورد في قوله تعالى: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾، الحجر:٢، من التعبير بالمضارع "يود" بدلا من "ودّ"، فـ "رب" لا تدخل إلا على المضارع، وفي دخولها على الماضي نكات بلاغية وعلل نحوية[٢].

إلا أنَّ العصام يوحد القياس لذلك التكسير الزمني الذي حصل في تناسب الأزمنة عبر اعتماده للفكرة الأساسية وهي: أن الغرض من التنبؤ بالزمن والتسبيق له من ماض إلى مضارع غرضه إحضار الزمن المستقبلي إلى نسق آني حاضر في نسق نصي حقه المضي[٣] لاستحضار الصورة على هيئة حاضرة لمشاهد غيبية تعج بكثير من الصمت، يتعبها تقرير مصيري، غير أن السبكي رفض هذا باعتبار أن نسق "أن" للمشكوك فيه، وهذا ما لا يتناسب مع سياق النص القرآني[٤].

ويدق استشعار السبكي للزمن عبر ذكره أنَّ الأنساق النصية والنظمية لـ (لو+ الفعل المضارع) لشيء متوقع زمنه كما في رؤيتك يا محمد لندم الكفار عند وقفتهم على النار متوقعه، قال السبكي ناقلاً عن والده: (قد تتبعت متوقعا فوجدتها إذا دخلت على المضارع كان ممكنا متوقعا أو كالمتوقع، ويكون المقصود إثبات الجواب، مثال المتوقع في هذه الآية[٥]، فإن مشيئة الله الانتقام منهم متوقعة إلاَّ أنه عنى زمن الخطاب والمقصود إثبات الانتقام على ذلك التقدير لا على نفي المشيئة، وكذلك قوله: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾ البقرة:١٦٥.

فمن الملاحظ أن نمط العلاقات النصية بين الأزمنة والعلاقات السياقية الملائمة تكون أكثر إذكاء للهيب الحسّ الزمني عند البلاغيين، خاصة في الحالات التي يخالف زمنها النظام التقعيدي للغة، فكان التأويل البلاغي متحينا للآثار الدلالية والذاتية التي يتوقع إحداثها، فأثر استخدام المضارع أدركه حسّا لبلاغيين، فالخطاطة الزمنية للآية استعمل فيها المضارع لمقاصد ذات منظور معنوي، فالمؤول الزمني في الآية تم تحويله من المضي إلى الاستقبال دون مراعاة للنمط النصي التقعيدي

(١) المرجع نفسه، ص:٢/ ٥٤٥.
(٢) المرجع نفسه، ص:٢/ ٥٤٥.
(٣) المرجع نفسه، ص: ٢/ ٥٤٥.
(٤) ينظر السبكي **عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح**، ص: ٤٥٢/٢-٤٥٤.
(٥) سورة البقرة ١٦٥.

حيث استعمل في تأويلهم البلاغي منظور المتكلم كمركز تأويلي للزمن، حيث اعتمد على علة أن الخبر صادر ممن لا يُكذَّب، فمؤشرهم تحسس أثر المضارع الذي يفيد تدرج الحدث وتمطيط الزمن.

فالبلاغيون أدركوا ارتباط الزمن بالقائل وأنه مفتاح لكثير من تأويلاتهم الزمنية، وهنا نتذكر مصطلح "تذويت الزمني" عند دارسي علم الخطاب وعند ربطه بالمتلفظ[١]، ولا شك أن في هذا الشاهد خبايا كثيرة دلت على سعة أفقهم في تفسير الخطاطات الزمنية فرؤية النبي-ﷺ- لوقفة الكفار على النار وتمنيهم العودة إلى الحياة لعمل الصالح فيها أمور غير متحققة في زمن التلفظ بالقول؛ لأنها منتفية في الواقع لتعلقها بأحداث لم تقع بعد [٢]، وهذا متكرر لسياقات نصية زمنية قرآنية.

ولو دققت النظر في الآية لوجدت أن مشاهد الآية التي استعمل السياق القرآني فيها "لو ترى" مشاهد عظيمة وحالها جسيم، فهيمنة السكون وقلة الحركة في مشهد عجَّ بالأمور المفزعة من الوقوف على النار وتنكيس الرؤوس والفزع عند البعث ونزع الأرواح، نجدها أحداثاً صامتة قليلة الحركة ليأتي ما بعدها أحداث مصيرية تكثر الحركة فيها، ولما كانت هذه المشاهد صعبة على مخيلة الكفار غريبة على مخيلة المؤمنين فقد عبر عنها السياق القرآني بصورة الحاضر؛ حتى لا تسرع نفوس الكفار لرفضها ولا توسوس نفوس المؤمنين بأن ذاك الحدث حدث بعيد، وأن في الحياة الدنيا سعة، ومما يدعم ذاك مجيء فعل "ترى" المشتق من ماضيه "رأى" الذي يحمل معنى اليقين[٣] ومضارعه يجمع بين يقين الحدوث وبين قرب الحدث، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا، وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾، المعارج:٦-٧[٤]، ومما يدعم أكثر أن "لو ترى" جاءت بعدها "إذ" وتلاها فعل مضارع، وحق "إذ" المضي في الفعل قال ابن عطيه[٥]: (هذا أبلغ لأن المخاطب يترك مع غاية تخيله، ووقعت "إذ" في موضع "إذا" التي هي لما

(١) الملاخ، **الزمن في الخطاب مقاربة تداولية معرفية**، ص: ٧١

(٢) ينظر ابن هشام، عبد الله بن يوسف بن أحمد، **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**، ج: ٢، ط/ ١، بيروت -لبنان، دار الكتب العلمية، ص: ٥٠١.

(٣) ينظر ابن عقيل، عبد الله بن عبد الرحمن عبد الله، تحقيق: محي الدين عبد الحميد، **شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك**، ج: ١، بيروت- لبنان، دار الكتب العلمية، ١٤١٤هـ، ص:٣٨٠، السامرائي، محمد صالح، **معاني النحو**، ط: ١، عمّان- الأردن، دار الفكر،١٤٢٠، ٢٠٠٠، : ١٢/٢.

(٤) ومثل ذلك في سورة السجدة آية: ١٢، وسورة الأنفال آية: ٥٠ ، وهناك العديد من الآيات.

(٥) ابن عطية: عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربي، من محارب قيس، الغرناطي، مفسر وفقيه أندلسي من أهل غرناطة، عارف بالأحكام والحديث، له شعر، ولي قضاء، توفي سنة ٥٤٢هـ، ينظر، الزركلي، خير الدين، **الأعلام قاموس التراجم**، ج: ٣، ط٨، بيروت-لبنان، دار العلم للملايين، ١٩٨٩م ص: ٢٨٢، **وينظر** الصفدي، صلاح الدين خليل بن أبيك، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، **الوافي بالوفيات**، ج: ١٨، بيروت -لبنان، دار إحياء التراث،٢٠٠٠م: ٤٠-٤١.

يستقبل وجاز ذلك؛ لأن الأمر المتيقن وقوعه يعبر عنه كما يعبر عن الماضي الوقوع)[١]، قال الزركشي: ("ترى" مستقبلو "إذ" ظرف للماضي؛ وإنما كان كذلك لأن الشيء كائن، وإن لم يكن بعد وذلك عند الله قد كان؛ لأن علمه به سابق وقضاءه به نافذ فهو كائن لا محالة) [٢].

فالتركيب القرآني المكون من: (لو+ الفعل الماضي+ إذ+ الفعل المضارع) له دلالة نظمية استخدمها القرآن في مواطن يشكك الكافر في حدوثها وربما يرفضها، وقد يستبطئها المؤمن، وفي مشهد تقف فيه الحركة ويهيمن عليه الصمت رغم تسارع الأحداث قبل هذه اللحظة، فهي لحظة مصيرية وفاصلة، والله أعلم، وهذا مما أذكى حسهم الزمني وإن اختلفت قراءتهم وتعليلاتهم فيه.

ب- يقظة الحس البلاغي الزمني التراجعي المتأخر عن وقته.

فقد يعبر عن الزمن الآني بماضٍ، والنكتة لهذا العدول هي التهويل من استحضار صورة البعيد الذي لم يقع في هيئة الواقع المنتهي، ومثال ذلك ما أشار إليه السعد في مطوله من استدعاء الشاعر لكلمة –تطيح –لاعتبار سرعة تساقط المصائب بعد وفاة يزيد– في قول الشاعر:

لِيُبْكَ يزيدُ ضارعٌ لخصومةٍ ومختبطٌ مما تطيحُ الطوائح[٣].

فيزيد مقتول لتوه، فهل لحقت الطوائح أن تطيح بذلك المختبط، الذي كان يستند على يزيد الذي لم يجف قبره؟!!

إن المحمولات الفعلية تضم ضمن شبكتها المحورية موضوعًا حديثًا وموضوعًا زمنياً، وقد يحدث تبادل بين مواقع الأفعال، لا سيما بين متقدم مفرغ من التحيين ومضارع لا يخلو من الآنية والمستقبلية بين فعل تام أنجز، وبين مضارع غير تام وقت التلفظ به، وقد سلك البلاغيون مسالك عامة ومسالك دقيقة تستدعي نوعًا من التركيز المكثف، ومما أقروه في شرحهم للتلخيص ما ذكروه في حديثهم عن التغليب: بأنَّ من التغليب استخدام قالب الماضوية في أحداث آنية فهي زحزحة للمشهد القائم

(١) ابن عطية، عبد الحق بن غالب، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، ج: ٢، ط:١، لبنان، لبنان، دار الكتب العلمية، ١٤١٣هـ ، ص:٢٨١.

(٢) الزركشي، محمد بن عبد الله بن بهادر، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، **البرهان في علوم القران**، ج: ٤: ط:١، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه ،١٣٧٦ هـ – ١٩٥٧م، ص: ٢٠٧.

(٣) السبكي، **عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح**، ص: ٢/ ٤٠٦-٤٠٧، الأطول، **الأطول على شرح تلخيص المفتاح**: ٤٧١-٤٧٢.

المستقبل إلى موطن جمود الحدث بصورة ماضية وفيه استرجاع للزمن وقد استشعروه عبر قياسهم من التعبير خلاف المقتضى(١).

قال السبكي: (من خلاف المقتضى التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ النمل ٨٧.... وأعلم أنَّ ما ورد من ذلك على قسمين تارة يجعل المتوقع فيه كالواقع فيؤتى بالأمر المستقبل بصيغة الفعل الماضي المراد به المضي تنزيلًا للمتوقع منزلة ما وقع فلا يكون تعبيرًا عن المستقبل بلفظ الماضي بل يكون فيه جعل المستقبل ماضيًا، ومنه قوله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾، النحل:١، وقال تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ﴾-الأعراف: ٤٤- ونحوه، فإما أن يريد أن بـ "أتى" أتت مقدماته فيكون التجوز حصل في الفعل باعتبار الحدث، لا باعتبار الزمان، وإما أن يريد بالادعاء أن الإتيان بالمستقبل وقع بالماضي، وهو أبلغ من الأول)(٢).

ومن ذلك ما ورد في كلامهم عن خروج الكلام عن مقتضى الظاهر من استشراف للزمن التعبير بالمضارع بدلا عن الماضي قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾النمل: ٨٧، فـ "النفخ" في المستقبل فلمَ استخدم البنية الفعلية الماضوية في "فزع"؟

نقول: (يحتمل أن يرد أنهم لمبادرتهم النفخ بالصعق كأن صعْقهم ماضٍ على سبيل المبالغة، ونظير الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ الشورى ٤٤-، وفي مثل هذا النوع تكون فائدة التعبير بالماضي الإشارة إلى استحضار التحقق، وأنَّه من شأنه لتحققه أن تعبر عنه بالماضي، و إن لم تُرد معناه، والقسم الأول مجاز، وهذا القسم ليس فيه مجاز، إلا من جهة اللفظ فقط) (٣)، ففي حديثه استبعاد للزمن لغرض يتعلق بأمور أبعد من تحديد مدلول الزمن وفق الخريطة الزمنية، ويرى في التعبير عبر تقديم الزمن على وقته أنه ليس من المجاز إلا ما كان العكس من استخدام سياق نصي لزمن متأخر لفظه، فتجاوزه لدلالة الزمن من أجل جَعْلِ غير المتحقق متحققًا، وكأنه من هول ما سيحدث ظهر أثر الفزع من النفخ قبل النفخ ذاته (٤).

(١) السبكي، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، ص: ٢/ ٤٢٥-٤٢٦.

(٢) السبكي، **عروس الأفراح، في شرح تلخيص المفتاح**، ص: ٣٨٦/٢- ٣٨٧.

(٣) المرجع نفسه، ص: ٢/٣٨٧.

(٤) ينظر المرجع نفسه، ص: ٢/٣٨٧

وفي تأويل السبكي وقراءاته للسياق دقة باعتبار بدايات الحدث فالساعة بدأت علامتها من خلال ظهور علامتها الصغرى ببعثة النبي–صلى الله عليه وسلم–فاستشعر مقياسه مقدمات الحدث واعتبرها داخله في الزمان الذي عبر فيه، فالماضي يدل ويحتمل على سبق الزمن وزمن الإحالة لزمن التلفظ(١).

أمَّا تأويله الثاني الذي اعتد به وهو: القائم على الادعاء الزمني فكأنَّ الزمن المتحدث عنه واقع لا محالة كوقوع الماضي الذي حدث، وفيه تجوز كما ذكر السبكي، وفيه مجاز لفظي، وقد فرض السبكي الفرضية ليعود بنفيها لما فيه من المجاز اللفظي أي الإتيان بالمضي مع توقف وقوعه، فاختيار الماضي ينتج أثرا ذاتيًا دالًا على درجة عالية من اليقين.

ومن المواطن التي تمثل كثافة في دراستهم للعقرب الزمني بدقة: مجيء فعل الشرط مضارعًا والجواب ماضيًا وهو مخصوص بالضرورة عند جمهور النحاة(٢) ومما جاء منه لغير الضرورة في قوله تعالى: ﴿إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ سورة الممتحنة: ٣، فكيف أورد جواب الشرط مضارعاً في " يكونوا–يبسطوا" ثم أورد بلفظ الماضي في "ودوا"؟

نظر البلاغيون إلى تأويل هذه الآية بعين بلاغية لها نكتة يحملها النص والسياق، فالسكاكي جعل السياق متعدد الجزاء رغبتهم في الظفر بهم؛ لأنَّ معاداة المؤمنين في حالة ظفر المشركين بالمؤمنين وعدمه، بل إنَّ رغبتهم في كفر المؤمنين تسبق رغبتهم في السيطرة على المؤمنين ولثبات رغبة كفر المؤمنين عند الكفار جيء بالماضي لجعل غير الحاصل مكان الحاصل مما يجعل "ودوا" معطوفة على "يكونوا "– و "بيسطوا"(٣).

في حي نجعله القزويني وصاحب الكشاف "ودوا" معطوفة على مجمل الشرط، وتابع السعد القزويني وصاحبهُ في الرأي(٤).

---

(١) الملاخ، الزمن في اللغة العربية بنياته التركيبة والدلالية،: ٤٨٨.

(٢) ابن هشام، عبدالله بن يوسف، **أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك**، ج: ٤، بيروت – صيدا، المكتبة العصرية، ١٤١٥هـ – ١٩٩٤م، ١٨٦، و ينظر الشمسان، أبو أوس، تقديم محمد فهمي حجازي، ط: ١، **الجملة الشرطية عند النحاة العرب**، الرياض السعودية، مطابع الأوفست، ١٤٠١هـ : ٤١٧، ٤١٨.

(٣) ينظر السكاكي، **مفتاح العلوم**، ص: ٣٤٧.

(٤) ينظر الزمخشري، محمود بن عمر، **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج: ٤، ط:** بيروت لبنان، دار الكتاب العربي، ١٤٠٧هـ: ٥١٣/٤، الخطيب، القزويني، **الإيضاح في علوم البلاغة الخطيب**: ١/ ١٩٥–١٩٦–١٩٧، **السعد، المطول شرح تلخيص المفتاح**، ص: ٣٣١–٣٣٢.

دقق السعد في الشرح بأن "ودوا" لو كانت من ضمن ما عطف على جواب الشرط المستقبلية فيكون تأويل مجيئها ماضية:

١- لكل جواب تصور يستغني عن الآخر فيصبح تحقق رغبة الكفار للكفر المؤمنين "المواددة" موجودة بالبسط ودون البسط.

٢- أو أن تكون المواددة مرتبطة مع بسط الكفار وهيمنتهم على المؤمنين فلا يحدث أحدهما إلا بالآخر.

إلا أنَّ السعد استشعر أن ارتباط زمن الفعلين مع بعضهما متعذر كما في رقم واحد، فمودتهم في حال كفر المؤمنين متحققة بالبسط أو دون البسط.

أما فرضية استقلال تصور الجوابين عن بعضهما أي حدوث المواددة دون البسط أو العكس تجعل من تقييد الفعل "ودوا" بالشرط "إن" لا فائدة بها؛ لأن المواددة حاصلة في كل الأحوال، وبما أنَّ زمن المودة ثابت فيكون فعل "ودوا" الماضي معطوف على جملة يثقفوكم أولى[١]، وبهذا يرد السعد رأي السكاكي وينتصر للقزويني وصاحبه.

ويأتي الحسّ الزمني عند العصام مخالفًا ومشاكسًا لحس السعد الذي خالف السكاكي، قال العصام: (وأورد عليه الشارح المحقق أنه يَتَّجِه مثلُه على قوله: ﴿يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً ﴾؛ إذ عدواتُهم ثابتة؛ ظفروا ولم يظفروا، ولا يمكن فيه هذا التوجيه؛ فالوجه: أن المراد إظهار الوَداد وإجراء مقتضياته، وكذا في كونهم أعداء)[٢] .

ويطرح العصام رأيه فيقول:

١- إن عداوة المشركين ومودتهم كفر المؤمنين قد لا تكون قائمة بعد ظفر، حيث إنهم أي: المؤمنين أصبحوا ضعفاء وخدمًا لهم، فقد لا يتمنون كفرهم فاحتاج السياق إلى الإخبار لتمنيهم كفر المؤمنين حتى بعد الظفر، وهذا يختلف عن مودتهم لكفر المؤمنين قبل الظفر، فيكون في التقييد زيادة فائدة.

٢- ورأى العصام أن الأمر قد يحتمل أنَّ الكفار قد لا يتمنون كفر المؤمنين قبل الظفر بهم؛ لأنَّ في ذلك مكاره وحروبًا ثقيلة لا تحتمل، فيكونون معرضين عن ذاك الوداد[٣].

(١) ينظر السعد، **المطول شرح تلخيص المفتاح**: ٣٢١-٣٢٢.
(٢) العصام، **الأطول على شرح تلخيص المفتاح**: ٢/ ٥٢٩.
(٣) ينظر المرجع نفسه: ٢/٥٢٩، ٥٣٠.

ومضى العصام يشرح ناظرًا إلى جماليات النكت في العدول إلى الماضي ومنها إبراز غير الحاصل بصورة الحاصل كما ذكر المفتاح في لفتة منه أنَّ الزمن لم يتأخر، وأنَّ الماضي هنا مجازي، قال العصام: (ربما تكون نكتة أخرى وهي: إمَّا ما ذكرها المفتاح عديلةً لقوله: كإبراز غير الحاصل في معرض الحاصل، حيث قال: وإبراز المُـقدر في معرض الملفوظ به لانصبابه الكلام إلى معناه)[١].

ونقل العصام كلام الزمخشري[٢] وتعليق المصنف عليه، قال العصام: (هذا كلامه قال المصنف: وهو حسن دقيق، ونحن نقول: لا يختلج في وهمك أنه يستحق حينئذٍ أن يكون أولَ جزاءٍ في الشرطية؛ لأنا نقول: قد سُلِك في الذكر طريق الترقي إلى الأقوى فالأقوى وهو مِن شعب البلاغة، كما لا يخفى)[٣]، فالعصام يحذر من أن يقال: إن "ودوا" أول جواب وجزاء للشرط كما ذكر الزمخشري (كأنه قيل: "وَدُّوا" قبل كل شيء- كفرَكم وارتدادَكم) ليؤكد العصام أن السياق فيه ترقٍ من العداوة والبسط المحتمل زواله بعد الظفر إلى شيء لا يزول سواء بعد الظفر أو قبله، وهو أقوى ما يدور في نفوس الكفار وأكثر ما يلح عليه ضميرهم، فالعداوة تكون مضاعفة، فنستنتج أن العصام لا يؤيد ما ذهب إليه المصنف من أن فعل "ودوا"هو أول جزاء للشرط رغم كونه الأسبق زمنا أي رغبتهم في كفر المؤمنين إلى أن السياق القرآني أراد الترقي بين أقوى الأمور من حيث الرغبة لا من حيث الترتيب الزمني.

فشفرة الوقت عند العصام دقيقة ومعقدة ومتنوعة فنراه يقف مع السكاكي في أن "وودا" استباق لزمن الحدث لإبرازه في زمن الحاصل.

ليقف أيضًا مع رأي الطرف الآخر في أنَّ "ودوا" معطوفة على جملة الشرط، ويرفض العصام بأنْ يجعل "ودوا" هي من حيث الترتيب ليست أول جزاء الشرط فيحدد أنَّ ترتيب "ودوا" بلاغيًا لا يقتضي أنْ تكون في أول الزمن للجزاء الشرطي، فقد جعل التقديم في زمن الفعل "ودوا" جزءا من

---

(١) المرجع نفسه، ص: ٥٣٠.

(٢) ما نقله العصام عن الزمخشري هو: وإمَّا ما ذكره الكشاف في قوله تعالى: {إِنْ يَثْقَفُوكُمْ}. الآية، حيث قال: (الماضي وإن كان يجري في باب الشرط مجرى المضارع في علم الإعراب فإنَّ فيه نكتةٌ؛ كأنه قيل: "وَدُّوا" قبل كل شيء- كفرَكم وارتدادَكم، يعني: أنهم يريدون بكم مضار الدين والدنيا جميعاً؛ مِن قتل النفس وتمزيق الإعراض، ورُدكم كفاراً أسبقُ المضـــار عندهم وأوّلُها؛ لعلمهم أنَّ الدين أعز عليكم مِن أرواحكم لأنكم بذّالون لها دُونه؛ والعدوُّ أهــم شيء عنده أن يقصد أعز شــيء عند صاحبه. هذا كلامه) الأطــول على شــرح تلخيص المفتاح: ٢/ ٥٢٨، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ص: ٥١٣/٤

(٣) العصام، **الأطول شرح تلخيص المفتاح**: ٥٢٩/٢، ٥٣٠.

مساحة مضارعه "يكونوا" حيث حصل الترقي في التعبير من الدافع الأقوى لدى المشركين وهو البسط إلى الأقوى الذي لا يزول وهو "المواددة" على عكس ما تبنته رؤية السعد الزمنية من فصل زمن "ودوا" عن الجزاء فهي معطوفة على مجمل الشرط وزمنه؛ فهنا التماس زمنين لشيئين أحدهما مضارع لم يتحقق وماض متحقق قبل المضارع وحتى بعد حدث المضارع.

وعن الفرق بين الرؤيتين من حصول وجود الرغبة في كفر المؤمنين الحاصلة في كل وقت، أو جعل المواددة معطوفة على جواب الشرط فالتعبير عنه بالماضوية مراده جعل الأمر غير الحاصل مكان الحاصل في الحالتين وفي اختلاف الزمنين نظرة قرائية تفاعلية بين سياقين مختلفين، وتأويلين مختلفين بين اعتبار الأفعال ضمن جملة شرطية بجزائها أو عطف بين فعلين مختلفين في الزمن، وهنا يتضح لنا تعدد أفق التأويل الزمني وإن اتحدت العلة ففي الزمن لديهم منافذ للرؤية قد يتولد عنها نتيجة واحدة أو نتيجة متعددة.

فنظرة البلاغيين إلى السياق الشرطي أنها وجهة دالة على درجات افتراضية أي درجات احتمال وقوع الأحداث التي يدل عليها الشرط، فالشرط لا يقلب زمن الأحداث إلى المستقبل، وإنما يحدد وجهه تفاعله مع السمات في الأفهام التي تملك بنية زمنية مستقلة، فقد نلاحظ أن التأويل الزمني لجواب الشرط غير تابع لزمن الشرط فبإمكان الزمن الداخلي لجواب الشرط أن يكون مستقبلًا أو ماضيًا إلا أنَّ هذه الاستقلالية مقيدة، و أنها ليست في جميع بنيات الشرط[١]، فالجمل الشرطية قد تضفي سمة الافتراض كما في "لو ترى" التي قرأها البلاغيون أنها تدل على وجود حالة حاصلة في كل وقت أو وجود حالة لوجود أخرى.

وفيما سبق لاحظنا أن الأزمنة تربطها علاقات اتجاهية، أي أن الزمن الإحالي للحدث إما يتقدم إلى الأمام وبالتالي نكون بصدد متوالية أحداث داخل الخطاب يتقدم فيها الزمن الإحالي فتسلسل الأحداث زمنيًا، أو أن الزمن يتراجع إلى الخلف؛ ليحتوي زمنا آخر أو أن يحدث احتواء جزئي للأزمنة، وبمعنى أن الزمن يحتوي جزءًا من زمن حدث سابق عليه في الترتيب، وتستوجب معالجة مسألة الترتيب الزمني بين الأحداث معالجة مماثلة لدور سمات الزمن والرابط والسياق في توليد الأحداث.

ثالثا: تغيب الزمن في حسهم البلاغي –التصفير الزمني–:

وكما كان لحسهم البلاغي حضور في قياس الزمن والتأول فيه كان لهذا الحس تغيب وتصفير وتصميت لإرادة معنى آخر سيتجه إليه السياق، و كان لاستشعارهم أهمية ذلك يصنعو نحيزًا من الفراغ

(١) ينظر الملاخ، **الزمن في اللغة العربية بنياته التركيبية والدلالية**، ص: ٤٤٠-٤٤١

الزمني، ونرى شيئًا من هذا في حديثهم عن حذف المسند الفعلي، قال السبكي: (لابد لحذف المسند من قرينة تميزه، والقرينة إما سؤال محقق، أي: واقع نحو قوله تعالى:﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لقمان: ٢٥، تقديره: "خلقهن الله"، والمعنى: يتحقق السؤال هاهنا تحققه قبل الجواب، لا أنه محقق الوقوع عند نزول الآية؛ لأن فعل الشرط مستقبل المعنى، بل الاقتصار على لفظ الجلالة يستدعي تقدم سؤال استغنى به عن ذكر خلقهن، وتارة يكون سؤالا مقدرا، أي غير منطوق به كقول الحارث بن ضرار النهشلي:

لِيُبْكَ يزيدُ ضارعٌ لخصومةٍ ومختبطٌ مما تطيحُ الطوائح) [١].

فالسبكي يرى أن العقرب الزمني المحذوف للمسند الفعلي ليس هو المهم هنا لسبق ذكره في السياق، فلذلك لم يكن تحديد زمن السؤال لسبق تحديده.

ويفصل العصام سبب تغيب الزمن والاستغناء عن بالاسمية فيقول:

هذا والأظهر أنَّ المراد بقوله:﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾لقمان: ٢٥، ما يَعُمُّ قولهَم: "لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ اللهُ"؛ لأنَّ المقصود أنهم يجيبون بإثبات الخلق له تعالى، سواء كان ذلك الإثبات مع ذكر الفعل أو مع حذفه، فالآية مثالٌ باعتبار ما يشتمل عليه مِن جوابٍ حُذف فعله، لا باعتبار أنَّ الجواب المستفاد منه لا محالةَ محذوف المسند)

ويؤكد العصام أن غياب الزمن وتنحيته لا يؤثر على نسق النص (فالمسند المحذوف في جواب هذا السؤال في الأكثر فعل... والمشهور في ترجيح تقدير الفعل أنَّ السؤال عن الفاعل، وأنَّ القرينة فعلية) ويناقش رأي السعد في رده هذا الرأي ليدفع رأيه، بأن المطلوب هو الفاعل لا الحدث وزمنه؛ (فيستوي في تعيينه تقديرُ الفعل والجملةِ الفعلية، والقرينةُ لا تَطلب إلا تقدير الفعل دون اسم الفاعل، ولا تَطلبُ تقديرَه عاملاً في المسند إليه المذكور)[٢] .

فالعصام يبين أن الفعل لو ظهر فسيكون سببًا في رفع المسند إليه (الفاعل النحوي) والمراد من السياق التركيز على الفاعل مع كونه ضميمة متحدة إلى الفعل.

ويفتح العصام باب النقاش من العلة لحذف الفعل فيقول: (بأنَّ السؤال عمَّن صدر عنه الفعل يقتضي تقديرَ المسند عاملاً في المسند إليه لا خبراً؛ لأنَّ الأوَّل يفيد صدور الفعل صريحاً، وأمَّا الخبر فيفيد اتحاد شيء مع المسند إليه، فربما يتضمن هذا لاتحاد صدور الفعل عنه، فالقرينة فعلية داعية

(١) السبكي، **عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح**، ص: ٢/ ٤٠٦
(٢) العصام، **الأطول على شرح تلخيص المفتاح**، ص: ٤٦٩.

إلى جعل الجواب جملة فعلية، نعم يتَّجه أنَّ السؤال جملةٌ اسمية؛ فالسؤال عمَّن يتحد معه المسند لا عمَّن يصدر عنه الفعل، فالقرينة اسمية لا فعلية) [١].

ويبرهن العصام على أن تفريغ الإجابة من المسند الفعلي الزمني له فائدة، لأنَّ حذفه يتوجب أنْ يقدر ولو في الذهن لرد الفعل عمن صدر منه فعل الخلق أمَّا لو ظهر المسند الفعلي ذو الدلالة الزمنية لكان الزمن المؤول للسياق.

فغياب الزمن الفعلي عند العصام هو مساعد لتحديد ذات الفاعل لا الحدث وزمن الحدث، وهنا تتجلى يقظة حسهم الزمني عند تفريغ السياق من الفعل الدال على الحدث والزمن، وفي ذلك إفساح وانزياح للتركيز على محدد قد يفقد التركيز عليه لو وجِد فتغيب الفعل وزمنه لزيادة التركيز على الفاعل.

ونجد منه جهدًا رائعًا ومن سلفه السعد للتعليل بأنَّ الجملة الاسمية صورة من الجملة الفعلية فالفعل حدد وقت الحدث بدلًا من تعميمه في الاسم، لذلك كان الاستفهام بالفعل (يبين لنا أن المطلب هنا الاسمية وأنّ في الاسمية تمثيلًا عن الفعل، واختصارًا ليستعين برد السيد الشريف على من قال: (إنَّ الجواب بالفعلية متروك لرعاية المطابقة، على أنَّ رعاية المطابقة تُوهِم قَصْدَ التقوية؛ وهو لا يليق بالمقام) [٢]، ففي حالة الإجابة بالفعل فسيتكرر الإسناد مما يدل على تقويته.

ويستمر العصام مستخدمًا حسه البلاغي في علة حذف المسند الفعلي لوجود قرينة فوجود الفعل زيادة في المعنى لا سيما الدلالة الزمنية من تقوية الحدث وزمنه ومطابقة الجواب للسؤال، إلا أن العصام يدفع هذا محتجا بحدس مقتضى الحال ومؤكدا عدم حاجة السياق النصي لذلك قال: (وربما يُرجَّح تقديرُ الفعل بأنَّ في تقدير الجملة زيادة حذفٍ وتقليلُ الحذف أوْلى.

وردَّه السيد السند بأنَّ الزيادة المشتملة على فوائد لا تُردُّ؛ وتلك الزيادة تشتمل على تقوية الإسناد ومطابقةِ الجواب للسؤال، وهو مردود بأنَّ المقام ليس مقام التقوية والمطابقة للفعلية، كما عرفت)[٣] .

وفي مثال آخر لسلب الجملة من الزمنية المترتبة على وجود الحدث واستبدالها بجملة اسمية فقد سبق أن ذكرنا من حديثهم عند قول الشاعر:

لاَ يأْلَفُ الدِّرْهمُ المضْرُوبُ صُرَّتَنَا ... لكِنْ يَمُرُّ عَلَيهَا وَهْوَ مُنْطَلِقُ.

(١) العصام، **الأطول على شرح تلخيص المفتاح**:٤٧٠، وينظر السعد، المطول ٢٩٢، حاشية السيد على المطول، ص: ٢٩٢.

(٢) العصام، **الأطول على شرح تلخيص المفتاح**، ص: ٤٦٩.

(٣) المرجع نفسه، ص: ٤٧٥.

يقول السعد موقفا الزمن: (الانطلاق ثابت له دائم من غير اعتبار تجدد الانطلاق) [١].

قال السبكي: (من أحوال المسند أن يكون اسما وذلك إذا قصد به عدم التجدد وعدم الدلالة على الزمن وينبغي أن يقال: لعدم قصد إفادتهما حتى إذا لم يقصد واحد منهما يكون كافيا في إثباته اسما ومثله:

لاَ يأْلَفُ الدَّرْهمُ المضْرُوبُ صُرَّتَنَا ... لكِنْ يَمُرُّ عَلَيهَا وَهْوَ مُنْطَلِقُ.

ويستمر السبكي في الحديث عن سلب الزمن من منطلق إرادة تثبيت صفة الكرم، ويتطرق إلى قوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ الكهف: ١٨، فالمراد هيئة الكلب من غير أن يتحرك، ويناقش السبكي مدافعا عن تجرد اسم الفاعل من الحركة وسلبه إياها، فاسم الفاعل إذا عمل حمل المعنى على التجدد، ويتابع السبكي نقاشه: (فإن قلنا بأن: "زيد ضارب الآن أو أمس أو غدا" لا يدل على الثبوت لتقييده بالزمن الدال على التجدد ولاسيما ضارب غدا وإن لم يقيَّد بظرف فهو مصروف إلى الحال قلت: الدلالة على التجدد عند التقييد بالظرف، إنما هو بناء على أن الظرف ينفي الوقوع في غيره بالمفهوم، ولا نسلمه كما هو قول مشهور في مفهوم الصفة وإن كان مرجوحا فقد سلمناه، فقد يقال: إننا نعني بالثبوت وعدم التجدد بالنسبة إلى ذلك الظرف، فقولنا: "زيد ضارب غدا") معناه أن الضرب الذي سيقع منه غدا يقع ثابتا مستقرا، سواء كان موجودا قبل ذلك أم لا، بخلاف" زيد يضرب غدا".

بل ونجد السبكي يفسر "زيد قام" من أن الجملة الاسمية تدل (على ثبوت نسبة القيام المتجدد، فالقيام متجدد وحصوله لزيد ووصفه به ثابت مستقر، ولا بدع في ذلك، فربما كان الفعل المتجدد لشدة لزومه ودوامه أو شرفه في نفسه يجعل لفاعله صفة ثابتة مستقرة)[٢].

فهو يضع جملة: "زيد قام" بين معادلتين:

معادلة الابتداء بزيد + معادلة الإسناد الفعلي للمسند إليه الاسمي= ثبوت نسبة القيام.

فأين الأثر للفعل ⟸ شدة اللزوم توحي بأن قيامه متجدد.

فنفَسُ السبكي الزمني دقيق فهو متحسس له ومتتبع لرائحة الزمن ومؤول له حسب السياق النصي، فيؤكد على أن المعنى المهم في الجملة "إن زيد قائم" هو الفاعل لا الفعل وزمنه، ويأتي الفعل في الرتبة الثانية.

(١) العصام، **المطول على شرح تلخيص المفتاح**، ص: ٣٠١.
(٢) السبكي، **عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح**، ص:٢/٤١٥- ٤١٦.

وفي مقتطفات بين سطور شروحهم نرى الحدث عن الحس الزمني في حالة غياب الفعل الدال وما في ذلك من جمالية وتناسق مع النسق النصي فعند قول الشاعر:

لِيُبْكَ يزيدُ ضارعٌ لخصومةٍ ومختبطٌ مما تطيحُ الطوائحُ

فالعصام – وقد سبقه السعد– يري أن حذف الفعل الدال على الزمن لما فيه من الدلالة الفعلية فيجعل الزمن متوقفا، فقوله: "ممَّا "يتعلق بمختبط، كما تعلق قوله: "لخصومة "بضارع، ويكفي للظرف رائحة الفعل، ولا يتوقف صحته على اعتماد اسم الفاعل.

وفي هذا الشاهد يقظة أيضًا لحسهم الزمني التنبؤي الاستباقي من عدول الشاعر عن الفعل الماضي إلى المضارع، لما فيه من استباق للزمن وتعجيل لمساحة عقاربه، وقد تحدث السعد والعصام عن ذلك، وإن كان السعد أقل كلاما من العصام.

قال السعد: (بمعنى الماضي عدل إليه استحضارًا لصورة ذلك الأمر الهائل).

فالسعد وقَّت الزمن على أنه مضارع باعتبار ما كان من إغاثة يزيد للمحتاجين، فيزيد مقتول لتوه، فهل لحقت الطوائح أن تطيح بذلك المختبط والضارع ؟!! فجعل المصيبة كأنها واقعة ويزيد توفي للتو، وكأن الدرس البلاغي يريد أن يثبت أن الذي توقعه الشاعر واقع لا تخمين؛ ليؤكد صحة ما يرثى به ممدوحه وهذه قراءة السعد لعقرب الفعل الزمني.

أمَّا العصام فخيال زمنه كان أسبق للأمام مستندا على ("تطيح" بمعنى الماضي؛ عُدِل إلى المضارع لحكاية الحال، كذا ذكره الشارح المحقق، وهو المشهور) إلا أن الحس الزمني عند العصام استند على زواية أخرى مستثمرا اسم الفاعل الذي تلمس به إخبارا بالمستقبل، قال العصام: (ونحن نقول: المراد بالضارع مَنْ يضرع بعد موت يزيدَ، وبالمتخبط مَن يسأل كذلك بعد موته؛ لأنه كان دافعاً للخصومات و المهلكات فلا يكاد تقع في حياته خصومة ولا إطاحةٌ مطيحةٌ لمالٍ متموِّلٍ حتى يضرعَ أحدٌ لخصومةٍ ويحتاجَ أحدٌ إلى الاختباط؛ فالمضارع بمعنى الاستقبال، ولا يخفى ما في هذا الاحتمال مِن كمال مدح "يزيدَ"ب حماية الناس مِن الظَّلَمَة، ولفظ البيت أمْرٌ ومعناه التحسر على فوت يزيد لِفَوْتِ هذه المنافع لعامة الناس، وهذا مِن موجبات فضل هذا التركيب على خلافه، فاجْمَعه مع ما ستسمع) [(١)].

فالحس الزمني هنا اختلف بين تقديم للوقت وقراءة أن الماضي تطيح صورة للمستقبل وبين تثبيت الماضي في زمنه وقراءة ماضوية للسياق عند العصام، فهو لا يرى تقديما لعقرب الزمن ويمثل هذا المثل فسحة خلافية لاختلاف نظرة بلاغية.

(١) العصام، الأطول على شرح تلخيص المفتاح، ص: ٤٧٢.

النتائج والتوصيات:

وفي نهاية هذا البحث رأينا كيف كان الحس الزمني عند البلاغيين يقظًا، فهم متأولون في النظام اللغوي أنظمته وأنسجته مدركين للفسحات الانزياحية من عدولات تحمل آفاقا معنوية رائعة أرادها المتكلم ليبلغ عبرها إلى السامع، ففي حديثهم عن بلاغة التعبير الزمني إلى استباق التعبير الزمني إلى تراجعه وتأخره أو حتى غيابه وتصفيره نكت ومغازٍ بلاغية جمالية ذات ارتباط بالنسيج اللغوي المعرفي.

ونستطيع أن ندون بعد هذه الرحلة البحثية عددا من النتائج:

١- الحس الزمني لدى البلاغيين دقيق وعميق، وتميزوا عن النحاة ببعض من التأويل الأدبي المستند على عقلية ومنطقية.

٢- إن صورة الزمن عند البلاغيين ليست قوالب جامدة تغلب عليها خصوصية الكلمة والمفردة التي أفرد لها النحو والنحاة وغلَّبوها بحكم طبيعة الدرس النحوي، فهي عند البلاغيين أفق ممتد يستمد زمنتيه من ثالوث المتكلم والسياق والضمائم القرائن التي تنتج المعنى،فالمحدد لوجهة الزمن متعدد وليس ذات الفعل حيث يعتمد على قرائن حالية كالقائل مثلًا ومصداقيته وما يسمى "بالتذويت من المنظور الزمني" كما في قوله تعالى: "ولو ترى" أو يعتمد على ضمائم وروابط متواجدة في السياق كما في قول الشاعر: "كلما وردت"، يجدر بالمتلقي البحث عن كوامنها؛ لأنها لا تقل أهمية عن زمنية الفعل الذي قد ينحرف إلى اتجاهات تخالف النظام اللغوي لمقاصد بلاغية ذات أهمية، بل نستطيع التأكيد بأن للبلاغيين إشارة زمنية سبقوا بها غيرهم، ولعل لنظرية النظم الأثر الأكبر في ذلك، كما أن الدراسات الحديثة في الأزمنة وبعض إشارات البلاغيين القديمة تؤسسان لاجتماع جماليات البلاغة والنحو.

٣- إن التفاعل بين عناصر السياق هو المنتج الأول للدلالة الزمنية دون جحود بأثر المفردة الزمنية أو تغافل عنها، ضمن أدوات النحو التي يتفلت منها هذا التفاعل أحيانا كما في خروج الكلام مقتضى عن الظاهر.

٤- إن تتبع الحس الزمني عند البلاغيين دقيق إذا استوقفهم بالتفصيل وفيما عداه فحسهم أميل للنحو والمنطق، ولعل المبرر في ذلك هو الغرض التعليمي الذي نشأت من أجله هذه الشروح، كما أن نمطية المنطق التي هيمنت عليها قللت من فرصة ظهور جماليات الذوق الذي يمتلكونه.

٥- للبلاغة نظرة متفردة في الزمن لا يصلها النحو ولا النحاة، فلها طرق ملتوية من التأويلات التي لا يمتلكها إلا صاحب دربة وملكة، من امتلاء السياق بالزمن أو تصفيره منه جمالية تتجلى في الحركة والجمود خاصة إذا طُبِّق ذلك على النصوص، ولذلك نقول: إن للبلاغة زمنها الذي تحتاج

إلى متأول متفقه، فنكاد نقول إن زمن البلاغة تأويلي بامتياز، ولعل في الأطروحتين المذكورتين في أول الدراسة عن الزمن ما يصل إلى تأصيل يضبط هذا وإن كانت دروب البلاغة لا تحب الصرامة في الضبط.

٦- لأساليب الشرط طرق زمنية ليست باليسيرة فبين زمن الشرط وجوابه، وما عطف على جواب الشرط دروب وعرة ومسالك قفرة تحتاج إلى تأمل، وفيه آفاق زمنية تتردد في ذهن المتلقي فتنقله من أفق إلى أفق زمني آخر، كما في جواب الشرط المضارع وما عطف عليه من فعل ماضٍ لعلة بلاغية، وهي خير ما يمثل دقة الحس الزمني لديهم.

٧- إن الأزمنة قد تتداخل فقد يحتوي زمن على جزء من زمن حدث سبقه وربما يتبعه في الترتيب، وقد يكون هذا التداخل جزئيًا أو كليًّا كما في جواب الشرط المتعدد في زمن الفعل "يكونوا" و"ودوا"، والفعل الواصف للحال كما في قولنا: "زيد يصلي"؛ لذا تستوجب معالجة ترتيب متوالية الأحداث المتداخلة والأخذ بالاعتبار لسمات الزمن والسياق لفهم آلية توالي وتوالد الأحداث وبلاغة التقييد فيها، وفي هذا رد على من ادعي قصرَ العربية في التعبير عن الزمن وأنه ليس فيها إلا فعل منجز وغير منجز، بل إن للعربية أفقا أوسع من التعبير بأزمنة الأفعال فقط عن الزمن من زمن للتلفظ وغيره، وكما تؤكد الصور السردية المتخيلة في "ولو ترى" ففيها امتداد زمني متعدد الوجهات والتأويل، لا يجهلها إلا من جهل أسس التعبير العربي.

التوصيات:

يحتاج هذا الحس إلى دراسة مكثفة ذات رؤية تملك ملكة الأسس المعرفية المتوجة بالنفس البلاغي المرن، وهذا الموضوع غض لم ينضج في الدراسات البلاغية على الرغم من الإرث البلاغي؛ لذا أوصي بالعكوف على دراسته في أمهات الكتب البلاغية وربط ما دار بها بما دار من كتب اللسانية الحديثة والتداولية الحديثة، وترجمة ذلك على النصوص بالتطبيق عليها؛ للخروج بنتاج مبتكر له أصول لم تتلقَ العناية من قبل، ولعل هذا نوع من التجديد في البلاغة.

المراجع

الاسفرائيني، عصام الدين إبراهيم بن محمد، الأطول على تلخيص المفتاح، دراسة وتحقيق: محمد الخراز، رسالة جامعية جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية الرياض السعودية، ١٤٢٣هـ١٤٣٤هـ.

التفتازاني، سعد الدين بن مسعود بن عمر، المطول شرح تلخيص المفتاح، صححه وعلق عليه: أحمد عزو عناية، ط: ١، بيروت–لبنان، دار إحياء التراث، ١٤٢٥هـ.

أبو موسى، محمد محمد، خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، ط:٥، مصر، مكتبة وهبة، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.

ابن عطية، عبد الحق بن غالب، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ط:١، لبنان، لبنان، دار الكتب العلمية، ١٤١٣هـ .

ابن هشام، عبد الله بن يوسف بن أحمد، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ط/ ١، يبروت–لبنان، دار الكتب العلمية.

توأمة، عبد الجبار، زمن الفعل في اللغة العربية قرائنه ووجهاته، دراسات في النحو العربي، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، ١٩٩٤م ط: ب، ت

الدسوقي، محمد عرفة، تحقيق: خليل إبراهيم خليل، حاشية الدسوقي على مختصر السعد، ط: ١، بيروت– لبنان، دار الكتب العلمية، ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م

ابن هشام، عبدالله بن يوسف، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، بيروت – صيدا، المكتبة العصرية، ١٤١٥هـ – ١٩٩٤م.

الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن، قرأ وعلق عليه: محمود شاكر، دلائل الإعجاز، ط: ٥، مصر، الشركة الدولية للطباعة والنشر، ١٤٢٤هـ ٢٠٠٢م.

حمداوي، جميل، مفهوم الجهة في اللسانيات، الألوكة، المغرب، ٢٠١٦م، ط: ١،.

الرازي، فخر الدين أبو عبدالله محمد بن عمر، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ط: ٣، بيروت، دار الفكر، ١٤٠٥هـ، ١٩٧٥م.

الزركلي، خير الدين، الأعلام قاموس التراجم، ط٨، بيروت–لبنان، دار العلم للملايين، ١٩٨٩م.

الزركشي، محمد بن عبد الله بن بهادر، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، البرهان في علوم القران، ط: ١، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه ،١٣٧٦ هـ – ١٩٥٧م.

القزويني، محمد بن عبد الرحمن، شرح وتعليق: محمد السعدي فرهود، عبد المنعم خفاجي، عبد العزيز شرف، الإيضاح في علوم البلاغة، ط: ٦، مصر–بيروت، دار الكتاب، ١٤٢٥هـ،٢٠٠٤م.

القزويني، محمد بن عبد الرحمن، التلخيص في علوم البلاغة، ضبطه وشرحه عبد الرحمن البرقوقي، ط:١، دار الفكر العربي، ١٩٠٤هـ-.

سيبويه، أبو البشر عثمان بن قنبر، الكتاب تحقيق: عبد السلام هارون، بيروت، عالم الكتاب بيروت، ١٩٨٥م، ط: ١.

السبكي، بهاء الدين أحمد بن علي، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، تحقيق: خليل إبراهيم خليل، ط:١، بيروت–لبنان، دار الكتب العلمية،١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.

السكاكي، يوسف بن أبي بكر بن محمد، تحقيق: نعيم زرزور، مفتاح العلوم، ط: ٢، بيروت– لبنان، دار الكتب العلمية ،١٤٠٧ -١٩٧٨م.

العقاد، عباس محمود، الزمن في اللغة، مجلة الأديب اللبنانية، العدد: ٦،١ يونيو ١٩٦٠م، ط: ت.

لعقاد، عباس محمود العقاد، اللغة الشاعرة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، ٢٠١٣م، ب، ت

العتيبي، زكية، الزمن البلاغي، جريدة الجزيرة، العدد: ١٧٢١٥، تاريخ النشر ١٦-١١- السامرائي، محمد صالح، معاني النحو، ط: ١، عمّان–الأردن، دار الفكر،١٤٢٠هـ٢٠٠٠م.

الشمسان، أبو أوس، تقديم محمد فهمي حجازي، ط: ١، الجملة الشرطية عند النحاة العرب، الرياض السعودية، مطابع الأوفست، ١٤٠١هـ.

شكري، إسماعيل، في معرفة الخطاب الشعري: دلالة الزمان وبلاغة الجهة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط:١، ٢٠٠٩م.

الصفدي، صلاح الدين خليل بن أبيك، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، الوافي بالوفيات، بيروت –لبنان، دار إحياء التراث،٢٠٠٠م.

المغربي، أحمد بن يعقوب، مواهب الفتاح على تلخيص المفتاح، تحقيق: خليل إبراهيم خليل، ط: ١، بيروت–لبنان، دار الكتب العلمية،١٤٢٣هـ٢٠٠٢.

الملاخ، امحمد، الزمن في اللغة العربية بنياته التركيبية والدلالية، مجلة الخطاب دورية أكاديمية محكمة تعنى بالدراسات والبحوث في اللغة والأدب وتحليل الخطاب منشورات مخبر تحليل الخطاب، جامعة مولود معمري الجزائر، العدد: ١٩، ٢٠١٥م.

الملاخ، امحمد، الزمن في الخطاب مقاربة تداولية معرفية، ط: ١، الرباط–المغرب، الدار العربية للعلوم ناشرون،٢٠٠٩م.

مطلوب، أحمد، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها عربي– عربي، ط:٢، بيروت– لبنان، مكتبة لبنان ناشرون، ١٩٨٩هـ ١٩٩٦م.

مطلوب، أحمد، القزويني وشروح التلخيص، بغداد، العراق، مكتبة النهضة، ١٩٨٦م، ط: ٢.

المراغي، أحمد مصطفى، تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها، شركة مكتبة مطبعة مصطفى الباي الحلبي وأولاده بمصر، ١٩٥٠م، ط١.

الهاشمي، أحمد، ضبط وتدقيق: يوسف الصميلي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ط:١، بيروت– لبنان، المكتبة العصرية، ١٩٩٩م.